مقدمة
النص
المفقود . . .

رواية

مصطفى حمزة اللحوى

مقدمة النص المفقود . . .
المؤلف : مصطفى حمزة اللحوى

تصميم الغلاف : أحمد بلال

الطبعة الأولي : يناير 2018
رقم الإيداع : 3021 / 2018
الترقيم الدولي : 978-977-769-214-4

جميع حقوق الطبع محفوظه
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 2 شارع شريف– الدور
الخامس – مكتب 57
م : 01010490247
ت : (02)23963002

كتبتُ هذه الرواية في خريف عام 2005م. ذلك العام المليء بالتناقضات والهواجس والتوقعات، وكنت وقتها طالبًا بجامعة الخرطوم. وعند آخر جملة وآخر نقطة وضعتها ظانّا أني قد ختمت روايتي، شعرت بأن هناك الكثير والكثير من المشاهد والصور والأحداث المتداخلة التي كان ينبغي تدوينها وكتابتها، فكان الاسم (مقدمة النص المفقود). وفي بدايات عام 2012م قمت بقراءتها مرة أخري وإعدادها للنشر ، وقد تأخرت تلك الخطوة نسبة لسفري وإقامتي خارج السودان لظروف العمل.

المؤلف...

لابد أنني
يومًا ما سأكتب النص...!

المؤلف...

هو...!

– سأبدأ الكتابة هذه الليلة... أشعر أن قلمي سيطاوعني أخيرًا....

هكذا قال بطلنا هامسًا وهو يستجدي قلمه بطريقة ما حتي يفلح أخيرًا أن يكتب أولي صفحات كتابه المنتظر... أتم جملته وقد أكمل وقوفه تمامًا وترك قلمه ملقي بين الأوراق المبعثرة أمامه، لا يدري أين يذهب، ظن أنه سيكتب هذه الليلة لكنه ترك القلم والأوراق وذهب بعيدًا يستطرد مشاهد وحوار قصته المرتقبة.

الْتفت إلى أوراقه موقنًا أنه سوف يكتب اليوم شيئًا ما.... تحرك ببطء وتروٍّ كأنه يتسلل إلى عوالم وأحاسيس أخري. عاد وجلس بهدوء ممسكًا قلمه بيده اليمني، واضعًا اليسري على أوراقه، ثم اتكأ على كرسيه وهو يأخذ نفسًا عميقًا ويقول:

ـ أخيرًا سوف أكتب...

مرت ساعة ثم أخرى وهو لم يكتب بعد شيئًا ولم يلامس قلمه أوراقه أبدًا. كان صامتًا، هادئًا، يتابع سرد قصته ويرسم مشاهدها

ويدقق فصولها.. والساعات تمضي وهو لا يزال يكتب على دفتر خياله ويقلب صفحات أوهامه.

طرقت زوجته الباب عدة مرات، دخلت بعدها مباشرة دون أن ينتبه لها، لتجده يهز رأسه ويتفاعل بعينيه مع شيء ما أمامه. استهجنت زوجته ذلك وإن كانت تتعاطف معه قليلًا، ثم بادرته بحسم:

ـ ألا تنام...؟ لقد حان الفجر أو يكاد...

نظر إليها باستياء ظاهر، ثم نظر إلى أوراقه الخالية أمامه يتحسر على قصته التي سهر معها ليلته دون أن يدوّن منها شيئًا. ثم باستياء يتناسب مع إحساسه بمن تقف أمامه، وضع قلمه الذي سهر هو أيضًا بين أصابعه، ولملم أوراقه وفتح درجه ووضعها بهدوء لكنه أغلقه بقوة حتي أحدث صوتًا استنكرته زوجته.

قال هامسًا:

ـ حتمًا سوف أذهب الآن للنوم، فلابد لأشيائنا أن تختلف يا زوجتي العزيزة...

هو يعرف أنه لابد له أن يكتب، لكنه لا يعرف كيف يكتب. هو تعود أن يكتب اسمه عند مؤخرة الصفحات ويرسم توقيعه ليغير عالمًا بذلك. هو تعود أن يكتب فقط بضع كلمات لا تزيد أبدًا، يغيّر

بها عالمًا آخر. فكيف لمن تعود أن يرفق الكلمات ويرسم التوقيع أن يكتب الآن صفحات وصفحات. صفحات لا تحوي قرارات بل تاريخًا وقصة حياة. - وأيّ حياة-.

إنه بطل قوي ـ لكن قلمه ضعيف ـ . بطل ثري ـ لكن أوراقه فقيرة ـ، بطل أنيق ـ لكن أحباره قذرة ـ، بطل فوق الأحداث وبينها وربما تحتها أيضًا.

فعندما تواجه وبعد أكثر من نصف قرن بحقيقة أنك كنت تلهث خلف سراب... عندها لا بد لك أن تكتب.. عندها لا بد لك أن تسخر من كل شيء ـ حتي نفسك ـ. وبطلنا واجه الحقيقة ذاتها، لكنه لم يسخر من نفسه فقط، بل سخر من كل من كان معه وحوله وتحته، ولم يجد من كان فوقه سلطة أو نفوذ ـ غرورًا لا حقيقة ـ... لكنه لم يستطع أن يكتب حرفًا.

سخر من زوجته وهو يمر جوارها ليس بنظرة ولا حرف، وإنما بفكرة ساذجة مرت على ذاكرته وهو يقاطعها دون أن تقول شيئا، ربما حتي يمنعها الكلام:

ـ سأنام...

وأشار بيده حاسمًا حتي يضمن عدم حديثها إليه.

سخر منها بطريقة يعرف أنه يسخر من نفسه خلالها.. تزوجها سلّمًا يصعد به هو إلى مناصب أرفع، فكان هو سلمًا صعدت به هي إلى مقامات أرفع. كان شابًا طموحًا يظن أنه يعرف كيف يمكن أن يصل إلى مبتغاه بأقصر الطرق وأيسرها.

رآها، لم تعجبه كثيرًا رغم أنها كانت تمتلك قدرًا معقولًا من الجمال وقدرًا أكبر من السلطة وسعة في الرزق ـ وهو ما أعجبه ـ. قرر أن يتزوج رزقها وسلطتها لكنه وجد نفسه يتزوجها هي ـ وهي بالطبع لم تكن تعنيه كثيرًا ـ. كانت ابنة الوزير الكبير وقتها كما كان يلقّب، الوزير الذي ساقته الأقدار إلى كرسي الوزارة غير مكترث بها ومخصصاتها، فقد كان محيط مال وبحر عقارات ومشاريع زراعية، كان يقرض الحكومة بل ويتصدق عليها أحيانًا، وهو ما دعاهم وجعلهم يلهثون خلفه ويشركونه في أمور الحكم، كان شريفًا بمقدار ما جعله يعتبر أن مشاركته كانت زكاة ماله وعمره... ذهبت تلك السلطة بعد مدة قصيرة من زواج صاحبنا بابنته قبل أن يهنأ بها فقد ترك الوزير الكبير دواوين الحكم واكتفي بمشاريعه وصدقاته عليهم.

قال في سخرية مفرطة:

ـ إن التاريخ سيشهد حتمًا أننا لم نعقد قرانًا بقدر ما أننا عقدنا

صفقة. صفقة كنت أظن أنني الرابح فيها، لكنني أدركت الآن أن كلينا كان خاسرًا... فما هو إنساني لا يمكن أن تحكمه المصالح يا زوجتي العزيزة.

احتفظ بها كثيرًا طمعًا في عودة سلطتها ولسبب آخر تمنعه رجولته الزائفة أن يبوح أو يعترف به هكذا. فشلت هذه الوسيلة لكنه لم يكن يستخدم وسيلة واحدة، فتعددت عنده الوسائل وتوحدت في قذارتها. أفاض في السخرية من زوجته وسلمها معه، ثم فجأة نام ملء جفنيه حتي أصدر صوتًا كأنه الزئير، ممددًا أطرافه في السرير بطريقة لم تتعودها زوجته التي دخلت عليه عدة مرات واكتفت فقط برفضها دون أن تفعل شيئًا إزاء ذلك. طلعت الشمس ولم يخرج النوم من جسمه، أفطر الناس ولم يفطر جسمه، وأخذت زوجته قيلولتها ولم يأخذها هو وإن كان لا يزال نائمًا....

دخلت عليه زوجته مغتاظة كعادتها تلك الأيام فوجدته لا يزال في أوضاعه الغريبة تلك، بل زاد عليها أن أرجع رأسه إلى الوراء كثيرًا، يكاد يلامس ظهره وأدني فكّه الأسفل يكاد يلامس صدره.... توقفت مندهشة كأنها لأول مرة تفاجأ بحقيقة ثلثي أضراسه المخلوعة. صرخت بأعلى صوتها عدة مرات بدأ بعدها ببطء يصلح من جسمه وأطرافه ويحبس أصواته، ويدير وجهه يمينًا

ويسارًا كأنه يشير: لا....أو يرفض شيئا، ثم استقر هادئًا وأخذ نفسًا عميقًا، بعدها بقليل فتح عينه اليسري على كسل ثم أتبعها باليمنى فإذا بزوجته أمامه ثائرة...

قال في نفسه متعجبًا:

ـ أما تزال واقفة؟!.

سأنام حتي تذهب عن وجهي..

لكنها صاحت في وجهه:

ـ ألا تصلي...؟!

هزّه قولها وكاد أن يفتح عينيه ويجيبها:

ـ صلّيت كثيرًا فماذا عساها كانت؟! لم تنهني عن فحشاء ولا عن منكر.. ! لكنه ترك عينيه مغمضتين وأجاب لنفسه وهو يشعر بالرغبة في الصلاة...

ـ سأصلي... عساها تكون مقبولة هذه المرة..!. ثم انتظر لحظات يترك الفرصة فيها لموقظه بالخروج.

صلّى بخشوع وطمأنينة وقبل أن يفارق سجادته، داهمه خاطر

غريب ـ أن يعيد صلاته.

استغفر الله على طريقة الشيوخ والأولياء وهو ينهض ويطوي سجادته ويضعها جانبًا ويواصل همهماته وتسبيحه، ساعده في ذلك بقايا لحيته المتناثرة في فوضي واضطراب ظاهر، فهو لم يتهكم عليها منذ عدة أسابيع، وضمور بطنه التي لم تذق طعم الأكل منذ ساعات، وطمأنينة في الزمن، فليتأنِّ كيفما شاء!.

جلس على كرسي البارحة، أمامه وريقات البارحة، وعلى يمينه قلم البارحة، تحاصره أفكار البارحة ونصف قرن من الجري وراء السراب.

استجاب دون وعي منه لخاطره الغريب ذاك وزاد عليه بأن اغتسل أولًا ثم عاد وصلّي من جديد. ردد ذات الاستغفار وذات الهمهمات والتسبيحات ثم لعن الشيطان الرجيم عدة مرات قبل أن يجلس على ذات الكرسي بجوار ذات الوريقات وذات القلم وتحاصره ذات الأفكار. أراد أن يتهرب منها فسأل نفسه مستنكرًا: ماذا فعلت؟! لماذا قمت بإعادة صلاتي؟! ثم تساءل بصوت خافت وهو ينظر إلي قلمه:

ـ هل أنا حقًّا أريد كتابة شيء ما....؟! أو أنه الفراغ الذي أعيشه وخيبة الأمل التي تسكنني ؟!!!.

لم يكن يدري إجابة لتساؤلاته، لكنه يعرف فقط أنه محاط بالأفكار الغريبة، وملاحق بالماضي اللعين. أصبح فقط يعيش الذكريات المؤلمة ـ تلك التي لم تكن مؤلمة قط في وقتها ـ بل كانت نصرًا وتعبيرًا عن ذكاء خارق، لكنها أصبحت اليوم مؤلمة لما احتوت عليه من خبث وقذارة. فعندما تشعر أنك وبكامل أناقتك تسبح فوق بركة من الروث والفضلات، وتتخاطفك الحشرات وبغاث الطير... عندها فقط يحق لك أن تتألّم..!

قطع خطوط النار على أفكاره فجأة وبحسم زائد وهو يصرخ :

ـ سأكتب...

ثم أخفض صوته وقال:

ـ سأكتب... فما لجرح بميت إيلام...

الوحدة والفراغ هما كل ما كسبه من رحلة نضاله الطويلة، فبعد أن كان مسؤولًا عن كل شيء أصبح اليوم غير قادر على تصريف حتي أموره الخاصة. وعدم الصحبة هي ثمرة مناصبه ومسؤولياته العظيمة، اللهم إلا قليل من المتسلقين والانتهازيين الذين سرعان ما فرّوا وتركوه ليصطحبوا آخر غيره طمعًا في بقايا سلطة أو فتات ثروة. وقليل منهم فقط ما زالوا يحلمون ويتوهمون له بقايا سلطة أو

قرار ـ إنهم لا يزالون يأملون أن يتوسط لهم أو يمنّ عليهم بفضلاته من المناصب والأرزاق.

وقد حرمته الأقدار الذرية والولد.

ظلّ رغم حزنه العميق يضحك عليهم وعلى زوجته وقبلهم جميعًا على نفسه ويقول:

ـ ها قد صرت مثل زوجتي، تركت مناصبي لكني ما زلت أحتفظ بسلطتي عند من يتوهمون ويوغلون في الأحلام... ثم ضحك بصوت أقرب إلى الحشرجة والبكاء..

ـ كم كنت موغلًا في الوهم والأحلام بسلطتك يا زوجتي العزيزة....

خرج دون ترتيب منه إلى ساحة داره التي بدا عليها الإهمال، فأصبح النجيل ليس مستويًا كما كان وأشجار الزينة أضافت للمكان قبحًا نسبة لزوائدها المتناثرة وفوضي نموها.

جلس على جانب من تلك الساحة التي كان يفترض أن تكون جميلة، جلس على كرسيه الوثير الذي اصطفت بجواره عدد من الكراسي الأقل فخامة وأخذ يضغط الأرض برجليه ويدفع الكرسي بظهره إلى الوراء، ثم يكرر ذلك بطريقة متعاكسة، فيسبح الكرسي

الأنيق في حركة اهتزازية متناسقة سرعان ما أصبحت تكرر نفسها بنفسها، فأصبح هو لا ينتبه لشيء سوي تلك الهزة المريحة. أغمض جفنيه مستكينًا إلى لحظة من الاسترخاء سرقتها له الأقدار. لعن في سره مكتبه وقرر في حذر أن ينقل أوراقه فربما هنا تسهل الكتابة. مرت لحظات وهو لا يفكر في شيء أو ربما كثرة الأفكار وتشابكها قطعت على بعضها البعض الطريق إلى ذهنه. شعر وكأنه طفل رضيع تحاول أمه تنويمه بعد أن نال ما يكفي من ثديها وضمة صدرها.... تذكر أمه وإن كان قد أضاع ملامحها فقد فرقت المنية بينهما باكرًا. شعر بحوجة بالغة إلى حنانها فأجهش بالبكاء لكنه تراجع مرتبكًا وصوت الذاكرة يعلو ويحذره ألّا يبكي ـ فالرجال لا يبكون ـ فعندما عرف أن أمه قد انتقلت إلى جوار ربها ورحمة مولاها وأفهمه البعض أن هذا يعني أنه لن يراها أبدًا في حياته مرة أخري، صرخ باكيًا، ليدخل عليه أبوه صافعًا خدّه بكفّه الغليظة:

ـ اسكت... الرجال عندنا ما ببكو...

وظل يضربه فيعلو صوته بالبكاء ، وتكسو وجه أبيه علامات الغضب من جديد فيصفعه مرة ثانية وثالثة وهو يكرر عبارات بذات المعني:

ـ أنت ماك راجل.... اسكتْ...

ليختنق المسكين ببكائه وقد بح صوته فاختفي البكاء وغاب عن أذن أبيه الذي أضاف مشجعًا:

ـ أيوا.. اسكت... أنت بقيت راجل تَبْ...

وهو لا يدري أن ابنه المسكين قد بلغ ذروة بكائه فأسكتته العبرات.

الآن وبعد أكثر من ستين عامًا يقول صبينا الكهل الهرم:

ـ ليتني تعلمت البكاء...!!

هكذا ودون ترتيب منه شعر بأنه ربما قد أمسك بالخيط الذي سيمكنه من الكتابة. وشعر بارتياح لتلك الذكريات البعيدة وهو لا يزال يغمض عينيه، لعلّه خاف أن يقطع حبل الذكريات، ولأنه قطعه فعلًا دون أن يدري بالتفكير في أمر الكتابة من جديد، حاول جاهدًا أن يعود بذاكرته إلى تلك القرية النائية، و أصبح يحوم بذهنه حول بيوتها وأزقتها القديمة وإن كان يعلم أن تلك المعالم التي يبحث عنها قد اندثرت وتغيرت أحوالها، لكنه ينقب الذاكرة لا الأرض، يبحث عن طعم الأزقة والبيوت القديمة.

فتح عينيه فجأة مفزوعًا وقد طرقت أذنه كلمة أو جملة إنجليزية صارخة:

stupid man ـ!!!.

ظهرت عليه علامات الغضب فأوقف اهتزاز ذلك الكرسي وهب معتدلًا في جلسته يتلفت يمينًا ويسارًا. لم يكن يبحث عن القائل وإنما كان يبحث عن متنصت لذاكرته، كأنه يعمل بمعني تلك الجملة، فهو يعرف تمامًا مصدر الصوت ويحفظ مناسبتها عن ظهر قلب، لأسباب كثرت عنده. أولها أنه ظن أنها كلمة سحرية، يقولها السحرة حتي يسمع الناس ما يقولون ويرضونه، وثانيها أنه لما فهم معناها تعجب كيف رضي أبوه القاسي، المتعجرف تلك الإهانة، بل وطأطأ رأسه راضيًا، أما ثالثها فلأنها كادت أن تودي بعلاقات السودان وبريطانيا لاحقًا لولا لطف الله.

اتكأ على كرسيّه وأعاد الاهتزاز من جديد، لكنه لم يغمض عينيه هذه المرة بل ظل يراجع ذاكرته بابتسامة غريبة، ابتسامة افتقدها كثيرًا تلك الأيام، ابتسامة هو نفسه لم يكن يدري لها تفسيرًا.

ـ أذكر وأنا ما أزال طفلًا، ربما تجاوزت السادسة أو السابعة من عمري فلم أكن أدري لنفسي تاريخًا للميلاد غير مناسبة ظلت تحدثني عنها أمي وكانت مرتبطة بحدث آخر في القرية، وكان ذلك يعقب موسم الحج بقليل. كنت كثيرًا ما أسمع أهل القرية يسبّون أبي ويدّعون أنه يسرق قوتهم ومؤونتهم بل والمساعدة التي تجود بها الحكومة عليهم من كساء وغذاء. لم يكن يعنيني ذلك كثيرًا، ففي مخيّلتي دائمًا قوة أبي وجبروته، إلى أن وجدت نفسي يومًا شاهدًا على حادثة لم تفارق أبدًا ذاكرتي لما حملت من دلالات كانت أكبر من فهمي وتصوري حينها.

كان نفرٌ من أهل القرية الذين يمثلون كبار رجالات الأسرة الأخري في قريتنا والتي كانت تتكون من أسرتين كبيرتين، إحداهما أسرة أبي ـ التي تظن أن القرية ملك لها، تتصرف في شؤونها كيفما أرادت وأن معونة الحكومة (التموين) إنما هي لهم في الأساس ـ أما الأسرة الأخري فقد ضاقت ذرعًا بأفعال أسرتنا وقررت فجأة أن تكوّن لها قرية جديدة تعبيرًا عن استيائهم ورفضهم لما يحدث من أشياء كثيرة منها بالطبع التموين. اجتمع ذلك النفر من الرجال وقرروا الذهاب

إلى المركز وإطلاعهم بالأمر، لكن كبيرهم قال في هدوء:

ـ إن أهل المركز هم أعاجم ـ خواجات ـ وليسواْ على ديننا، فكيف نشكواْ لهم من يجمعنا بهم الدم والدين. ثم لا بد أنهم على علم بما يفعله (شيخ الحلة) ـ يقصد أبي.. ولو كانواْ غير راضين لفعلوا شيئا.

ثم أضاف حاسمًا الأمر بعد صمت قليل:

ـ أنا أتبرع لكم بأرضي، فلنرحل جميعًا وليأْت من شاء من أهل القرية معنا ويحجز له دارًا، ولنبني بيوتنا الجديدة الجمعة القادمة في نفير كبير.

وافقوا جميعًا وأبدوا سرورهم بكرمه وتبرعه بجزء كبير من أرضه التي كان يزرعها ويجني منها الكثير من المال. شاع الخبر وعم كل أرجاء القرية، فأبدي عدد ليس بالقليل من أسرة شيخ الحلة استعدادهم لترك داره والرحيل إلى الدار الجديدة. ويبدو أن أبي تحرّك هو الآخر وأخبر المركز بما يمكن أن يؤدي ذلك من فوضي وعدم النظام بعد أن رأي الجميع يجمع معدات البناء والتي لم تكن تتكوّن إلا من الحطب والقش والقصب.

وفي يوم الجمعة بدأوا البناء وما أن انتصف النهار حتي حقّ لمن ينظر إلى الأرض التي كانت زراعية بالأمس، حقّ له أن يقسم أنها قرية

متكاملة تسري في جوانبها الحياة منذ سنوات. كان أبي قلقًا، غاضبًا، تتردد عليه حاشيته بالأخبار المبالغ فيها أحيانًا، حتي أتاه من يلهث مبتهجًا هذه المرة وأخبره أن (الخواجات) قد وصلوا.

خرج لاستقبالهم عند مدخل القرية من فرط قلقه، كانوا ثلاثة، يمتطون خيولًا جامحة، وكان يصحبهم رابعٌ لا يختلف عن أهل القرية في شيء إلا عزة وأنفة بادية على وجهه... لم يترجّل أحد عن حصانه وأبي يرحّب بهم أشدّ الترحيب ويشكو أشدّ الشكوي، وهم لا يأبهون لما يقول ولا ينظرون إليه، بل كان نظرهم متوجّه ناحية تلك المباني الجديدة وهمّة الرجال وهم يبنون ويجتهدون ولا يلقون بالًا للزائرين غير المرحّب بهم، يتأملون ذلك بإعجاب باد على وجوههم، وأبي لا يزال يكثر الشكوي والأنين، ورابعهم السوداني ينظر إلى أبي حينًا ثم يعود سريعًا بنظره إلى من يرافقهم حينًا آخر، ربما كان يخشي أن يسألوه عما قاله أبي فيحتار بماذا يجيبهم، فقد علمت فيما بعد أنه لم يكن سوى مترجم ليس إلا وأنا من ظننته صاحب سلطة مثلهم.

تبادلوا العبارات الأعجمية وملامح وجوههم تنمّ عن رضا، فيزداد أبي حرقة وغبنًا، ثم يلتفت ثلاثتهم ناحية أبي، فيصلح أبي من تعابير وجهه ويفتعل ابتسامة كانت قاسية على شفتيه. بادره أحدهم وهو يهز رأسه:

Good_

ثم كررها عدة مرات مضيفًا إليها كلمة تسبقها:

Very Good_!

لم يفسر مترجمهم لأبي شيئا، ربما كان ينتظر كلامًا أكثر وضوحًا فهو يعلم أنهم جاءوا لنصرته، وما قالوه لا يصلح أن يترجم إلى اللغة العربية. وبالطبع فإن أبي فهم معني تلك العبارة مما ارتسم على وجه (الخواجة)، فثار وصرخ في وجه رابعهم بكلام طلب منه أن يوصله للخواجة، الذي صرخ هو الآخر وطلب من مترجمهم أن يسكته وأن يعلمه أنهم سوف يرفعون توصية بالاعتراف بالقرية الجديدة بل وأن تعطي تموينًا خاصًا وينصّب عليها شيخًا جديدًا بالضرورة .

جنّ جنون أبي وأصبح يقذف بالكلمات والسباب دون وعي منه أو إدراك، ليصرخ الخواجة بأعلى صوته وهو يقبض لجام حصانه ويرحل:

Stupid Man_...!

سكت أبي مباشرة وجحظت عيناه لسماعه ذلك الكلام الذي يبدو حاسمًا وتوجه بعيونه يستجدي الترجمة. ظهر الارتباك على مترجمهم الذي كان قريبًا من أبي فأمسك أبي برجله يصرخ:

ـ يعني شنو....؟!!..

انطلق ثلاثتهم ورابعهم لا يزال بجوار أبي، ولما أعاد أبي صراخه:

ـ يعني شنووو.....؟؟؟!!!.

همهم المترجم بكلمات أزاحت تلك العزة والأنفة التي رأيتها تكسو وجهه سابقًا، وتبدّلت بانكسار وضعف سرعان ما انتقلا إلى أبي، فطأطأ هو الآخر رأسه، وكنت أنا أراقب من بعيد مما جعلني أظن أن(الخواجة) قد سحرهم جميعًا.

لحق بهم رابعهم بسرعة زائدة، كأنه يهرب من شيء ما أو ربما لعنة ما...

نظر أبي إليّ وتقدم ناحيتي وأنا أراه شخصًا آخر غير الذي كنت أعرفه. كنت متى تقدم نحوي دائمًا أهمّ بالجري والهرب منه، لكني هذه المرة جريتُ أنا نحوه دون أن أكون مدركًا لما حدث. قابلني بأحضانه وكم كان كثيرًا يستقبلني بصفعة أو صدود. ضمّني إليه وقال في أسي:

ـ شفت الخواجة وعجرفتو !!..

سعدت أنا بحضنه الدافئ ولم أنتبه لانكساره ساعتها وإن كنت

شديد التأثر بذلك المشهد. تباينت في داخلي الأحاسيس المختلفة، الإعجاب بجبروت ذلك الأعجمي، وأنفة ذلك الأسمر ، وانكسار أبي. ورغم كل المتناقضات كنت سعيدًا جدًّا بذلك الحضن الدافئ .

وعدنا إلى منزلنا، أبي منكسرًا لا يكلّم أحدًا، وأنا يتقافز المشهد في ذاكرتي وتتعالى تلك الجملة **stupid man** مرات ومرات...

وأذكر أنني كنت أصرخ بها لأعاقب بها تلك المرأة البسيطة التي كانت تعمل عندنا، فكنت كلما أخطأت صرخت في وجهها:

ـ stupid man...

وكنت دائمًا أتحسر على عدم التأثير السحري الذي أحدثته يوم سمعتها أول مرة).

وجد نفسه ممسكًا بقلمه وأوراقه يتجول داخل ذلك المكتب اللعين. استعجب، متي ترك الكرسي الهزّاز وجاء إلى هنا. قلّب أوراقه فإذا هو يكتب وأبوه بين السطور وهو إنما شاهد أو راوٍ.. قال في نفسه:

ـ ما كل هذه المراوغة ؟! أنا لا أريد أن أكتب عن أبي، بل أريد أن أكتب قصتي أنا..

ثم قال في أسي:

ـ رحمك الله يا أبي فكم كنت أنتقم لك... وكم كنت كثيرًا أنتقم منك... وكم كنت أحبك رغما عنّي...

وجد في ذلك سببًا كافيًا لأن يمزق تلك الأوراق ويرمي بها في تلك السلة الخاصة بكتاباته الفاشلة التي يرفض لسبب ما أن يخرجها من جواره عند أي أعمال نظافة أو ترتيب. يسمّيها تجارب وأحيانًا أخري يتصالح مع نفسه ويسمّيها قمامة، لكنه يحتفظ بها فهي بطريقة أو أخري جزء منه.

وتمرّ الأيام وكل مساء يمنّي نفسه بالكتابة، وتمضي حياته بين أمرين

فقط، إما أن لا يكتب، أو أن يكتب ثم يقوم برمي ما كتبه في تلك السلة التي أصبحت ضخمة، ممتلئة بتاريخ وذكريات متعفنة. في كل مرة يجد حجة جديدة حتي يتخلص مما كتب، والحقيقة أن عذره دائمًا هو أن ما كتبه أكثر قذارة مما يستحق أو أنه أقل قذارة مما يجب. هو يري نفسه بعين مظلمة ـ لكن الحقيقة مؤلمة ـ وكلما دوّنها شعر بمزيج من الراحة والبكاء، لكنه عندما يقرؤها أو يعيد قراءتها يمزّقها بأعذار واهية لا تساوي رغبته في التخلص مما كتب...

قرر مرة أن لا يقرأ ما يكتب حتي يستطيع أن يواصل الكتابة، فأصبح يرمي أكثر، حتي إنه أصبح يرمي وريقات لا تحوي سوي جمل أو أسطر قليلة.

ـ كم هو قاس أن تكتب الحقيقة... وكم هو قاس أن تسكنك الحقيقة..

ـ كيف لي أن أتعلم الكتابة وأنا أحبو إلى السبعين من عمري..

أرهقته فكرة الكتابة، فوجد نفسه عوضًا عنها يفكر دائمًا كيف يمكنه أن يتعلم الكتابة وأساليبها. كانت هذه الفترة بمثابة استراحة من آلامه وذكرياته. جمع خلالها عددًا مقدرًا من كتب القصة والرواية، لكنه سرعان ما تركها وجمع كتب المذكرات والسير الذاتية لمشاهير

العالم ومن تركزت حولهم الأحداث.

شدت انتباهه فكرة جمعت بين معظم تلك الكتب التي تستطرد الحقائق بأسلوب يتناسب معها دون مبالغة في الأسلوب الأدبي المنمق. شدت انتباهه تلك الكلمات التي تسبق المقدمة أحيانًا أو ربما تأتي بعدها مباشرة. كلمات تشكر الكاتب الأنيق فلان، أو الصحفي الجاد فلان، وهو غالبًا ليس بصاحب السيرة المعنية... أي أنهم يستعينون بكتّاب مهرة لتدوين مذكراتهم وتاريخهم. نالت الفكرة إعجابه بادئ الأمر فهي قد تعفيه تعب الصياغة ورهق اختيار الكلمات. شعر أنه ربما كان عليه فقط أن يتحدث بحرية أكثر وبعبارات أسهل ويروي ما شاء من أحداث دون أن يُعير اهتمامًا لكيفية صياغتها التي يوكلها لكاتب ما يصبح جليسه فيما تبقي له من أيام. شعر بالرضا وبدأ يعد العدة لاختيار جليسه الذي سوف يأتمنه على حياته وتاريخه. استكان إلى ذاكرته يفاضل بين الكتّاب والصحفيين، فأمضي في ذلك وقتًا طويلًا وأرقًا ربما عادل أرقه وهو يحاول الكتابة بنفسه، وهو يستبعد واحدًا تلو الآخر بأعذار متشابهة وعدم ثقة منه مفرطة. حتي أصبحت تطارده الأحلام المزعجة وكل كاتب منهم يُزايد على حياته في سوق السياسة وميادين الألعاب القذرة.

هو يعرف أنه كان صانعًا لتلك الألعاب، فكم من عزيز أذلّوه

على صفحات الصحف والمجلات، وكم من ذليل أعزّوه على ذات الصفحات. هي أقلام قذرة إذن!. ويبدو أنه نسي للحظة أنه كان حارسها الأمين.

ـ إنهم ليسوا كتّابًا، إنهم فقط يرقصون على طبول متعفنة...إنهم حتمًا سوف يبيعونها لمن يدفع أكثر ومؤكد أنني أملك الكثير..

ذهب ذلك الرضا عن فكرة الكاتب الجليس إلى غير رجعة، وحلّ محله استياء ورفض شديد، مشفوعًا بذكريات أخري مريرة، وتشهير وإذلال لأناس ليس لهم ذنب سوي أنهم اعترضوا طريقه يومًا ما ـ فقد كان طوفانًا يدمر بلا رحمة ـ.

بكي وترحّم على أبيه، هاربًا من إحساسه بذنبهم.

ـ ألا رحمك الله يا أبي... فكم من رجال أذللتهم... إنها اللعنة يا أبي، فها هي الأقدار تتولّي إذلالنا، فمثلما قضيت أنت أيامك الأخيرة معزولًا ذليلًا هناك، رغم جبروتي أنا هنا في الخرطوم، ومثلما لم تجد من يأخذ عنك العزاء، حتي أنا لم يكن موتك دافعًا لعودتي وأقمت عزاء عمل هنا وادّعيت لك البطولة!. ها هي اللعنة تطاردني يا أبي وها أنا ذا وحيدًا .

ـ كيف هو الموت يا أبي؟!. والناس هنا لا يذكرون محاسن موتاهم،

وإنما ينهشون أجسادهم مجرد استشعار النهاية.. فهل أتركهم يأكلون لحمي ؟!.

ـ عجبًا وأنا من كنت على وشك دعوتهم على شواء من لحم وجهي.. !..

ـ لن أستعين بكاتب آخر أبدًا فليس لماء الوجه ثمن.!!.

قال جملته الأخيرة قاطعًا على نفسه الطريق بحسم أمام تلك الفكرة التي بدت له شديدة الغرابة بعد أن كان راضٍ عنها كل الرضًا ، فشعر أنه لن يفلح أبدًا في إيجاد طريقة للكتابة. سأل نفسه مرة أخري في حيرة بادية هذه المرة:

ـ هل أنا حقا أريد كتابة شيء ما...؟!.

وبدأت الإجابات المتنافرة والمتشابهة تتوافد إلى ذهنه كصوت الزئير أحيانًا، وأحيانًا أخري كعزف عصفور ودود، كسير الجناح. كعزف الموسيقي الهادئة تارة وتارة أخري كنفخ البوق.

توسّد يديه واتكأ على كرسيه يغالب تلك الأصوات المتباينة، وبعد دقائق معدودات ارتطم قلمه بالأرض بعد أن تدحرج من بين أصابعه دون أن يحدث الصوت الذي أصدره أيّ تأثير عليه، ويبدو أنه قد استجار بالنوم من أفكاره.

محكمة.. !!!.

هكذا صرخ أحد العسكر بأعلى ما أعطي من صوت فإذا بالهدوء يسود القاعة والكل يُصلح من وضعه ويهب واقفًا. دخل القضاة وجلسوا فجلس الجميع إلا صاحبنا الذي بدا مذعورًا بسرواله القصير المرقّع وعمامته البالية وصدره العاري وعينيه الجاحظتين، ويديه تمسكان بقوة ذلك القفص الحديدي. أشار القاضي، فنادي أحدهم باسم صاحبنا رباعيًا وزاد عليه بعض الألقاب والتهم المنسوبة إليه.

وقف أحد الحضور والذي كان يجلس على أحد الصفوف الأمامية وهو يرتدي عباءة جميلة، عرّف نفسه قائلًا:

ـ.. ....

حاضر عن المتهم.. ....

صرخ صاحبنا رافضًا:

ـ لا.. لا...

ـ بل أنا حاضرٌ عن نفسي. . .

تبسّم صاحب العباءة الزاهية في هدوء ومكر، ثم وجّه كلامه للقاضي:

ـ أرجو أن يلتمس حضرة القاضي العذر لموكلي فهو كما تعلمون..... .....

وقبل أن يكمل حديثه أشار القاضي بقبول العذر وطلب منه الجلوس ثم نظر ناحية الادّعاء طالبًا المداخلة.

ـ سيدي القاضي.... حضرات المستشارين.. . السادة الحضور، إنكم تعلمون وبلا شك مدي الدّمار الذي تسبب فيه الماثل أمامكم..... .....

إنه.....

وإنه.....

ثم إنه.....

ولذا أطلب من سيادتكم تنفيذ أقصي عقوبة عرفتها الإنسانية وعرفها التاريخ.....

وشكرًا...

ثم جلس وهو يرمق صاحبنا بنظرة كلّها وعيد وسخط....

اعتدل صاحب العباءة واقفًا على مهل وابتسامته الماكرة ما زالت تكسو وجهه، وتقدم ناحية القاضي متكاسلًا وهو يقول:

ـ لو أذن لي سيادة القاضي أن أهديه هذا الكتاب الجميل، ويواصل تقدمه وهو يقلّب ذلك الكتاب بين يديه ويلوّح به ناحية الحضور تارة، وتارة أخري ناحية القاضي. يتوقف قليلًا ويوجهه ناحية صاحبنا ثم يضعه بين يديْ القاضي وهو يقول بهدوء:

ـ هذه اعترافات موكلي مكتوبة بين يديكم!.

ويواصل وقد حوّل نظره تجاه صاحبنا:

ـ بمحض اختياره... دون أدني ضغط أو تعذيب...

صرخ صاحبنا بأعلى صوته:

ـ لا.. .لا....

وهو يمدّ يده خارج ذلك القفص اللّعين، ظنًّا منه أنه ربما يمسك باعترافاته المحتواة بين غلافي ذلك الكتاب.

يواصل الصراخ....

ـ لا.. لا....

فإذا به يكاد يسقط من ذلك الكرسي الهزّاز....).

قال وهو يتبيّن ما حوله:

ـ لقد كان حلمًا مفزعا إذن !

وبعد شهيق طويل وزفير أطول، أعاد رأسه إلى الكرسي وهو يعزي نفسه:

ـ لقد كدت أن أجعله واقعًا أكثر إزعاجًا وفزعًا!.

ـ وجدتها!!....

هكذا قال وقد أصدر احتكاك إبهامه وأصبعه الأوسط صوتًا أعلى من لسانه وهو يعيد قوله:

ـ نعم وجدتها....

ويعيد ذات الاحتكاك ذات الصوت وقد تهللت أساريره وهو يتجول داخل غرفة مكتبه الذي أصبح مأهولًا تمامًا بالأوراق والقصاصات، حتي صار لا يكاد يجد موطئ قدم يخلو من تلك الأوراق. يرفع إحدي قدميه ويستند على الأخري التي هي الأخري تستند على قصاصة من ماضيه وذكرياته. ينظر إليها لكنه يعود سريعًا متمسكًا بطريقته الجديدة وهو يردد:

ـ وجدتها أخيرًا...

ـ الأعوام والشهور والأيام...

ثم أخفض صوته قليلًا ودون أن يشعر طأطأ رأسه وأضاف:

ـ والساعات والدقائق والثواني....

وبدأ يشرح لنفسه طريقته الجديدة :

ـ سأكتب العام أو الشهر على طريقة العناوين الجانبية، وأضع تحت العنوان خطًّا وأمامه مباشرة نقطتين فوق بعضهما وخطًّا آخر صغيرًا على شكل شرطة، وأكتب أهم الأحداث التي حدثت في ذلك التاريخ.

ـ ولأن هنالك أحداثًا تتسلّق الذاكرة أكثر وضوحًا، سأضيف الأيام أحيانًا، ولأن هناك أحداثًا لا تخطؤها الذاكرة، ربما أجد نفسي مرغمًا على الساعات أو ربما الدقائق والثواني.

ـ هذه الطريقة قد لا تكلفني عناء النظم والسرد، لا يهمّ كثيرًا كيف أكتب، أو بأيّ لغة، دارجة أو فصيحة، أو حسبما تقتضيه الحاجة، حتي علامات الترقيم لا تهم كثيرًا، فالحقيقة لا تحتاج لتنميق ولا كثير بيان، تحتاج فقط لقليل من الصدق، وأظنني الآن أمتلك شيئًا منه.

ـ نعم سأبدأ.....

أمسك أوراقه وقلمه وهو على شفا حفرة من الكتابة. ومرّ زمان الصمت طويلًا، ثم كتب على جانب من الورقة ووضع خطًّا تحت

ما كتب ونقطتين وشرطة كما اتفق، لكنه لم يكتب عامًا أو شهرًا، بل كتب:

الميلاد:

أراد أن يكتب العام والشهر واليوم ويلحق بذلك جملة مقتضبة كأن يقول:

ـ كان ميلادي...

لكنه لا يدري متي كان ذلك، هو يعرف أنه كان بسنوات قليلة أو ربما كثيرة لا تعني له شيئًا قبل أن يأتي إلى القصر. ثم أنشد وهو يرثي حاله على طريقة « أبو ماضي»

هل أنا يا قصر منك؟!

أفاق من ذلك الرثاء وقد اعتدل في جلسته يكتب عامًا آخر:

العام ثلاثة وألفين:

النهايات دائمًا ما تكون عالقة بالذاكرة أكثر من البدايات....

في ذلك العام وصلت ذروة سلطتي أو ربما أنا من توهمت ذلك، في ذلك العام كنت من رجال الصف الأول في القصر ـ وإن لم تكن لي سلطة شرعية بذلك. كان رئيس جمهوريتنا رئيسًا للدولة، وكنت أنا

رئيسًا لما دون ذلك ـ أو هكذا أنا تخيّلت. كنت لا أفكر في شيء سوي ذلك القدر اليسير من السلطة الذي لم يتيسر لي بعد....

وقفت أمامهم وفي نفسي بقايا سلطة:

ـ ..لو أذنتم لي فإني أسألكم الصحبة والجوار..

ـ فالسودان مقبل على سلام وتحول ديمقراطي... وكم يعز على أن لا أكون مشاركًا في ذلك..

وضع نقاطه الثلاث ووجد نفسه يضحك ـ جميل أن نضحك وقت البكاء ـ بل الأجمل أن نعرف متي نضحك... ومتي نبكي... وصاحبنا ضحك حين يفترض به أن يبكي.

تم إعفاؤه من كرسي الوزارة، ذلك المنصب الذي كان يشغله عن القصر وخبايا السلطة، فرح فرحًا شديدًا بذلك الإعفاء ظنًا منه أنه يقترب أكثر من القصر ومركز القوة. بدأ يتأهّب للدور الجديد في مفاوضات السلام وصياغة المناصب والأدوار، يلعب بالأسماء والألقاب كيفما يشاء، يزداد حماسًا يومًا بعد يوم، فقد أدرك بخبرة من عركته السياسة والأحداث أن السلام لابدّ وأنه واقع لا محالة وأن الحرب ستضع أوزارها لا محالة أيضًا. فأصبح يحدث نفسه ويمنيها:

ـ إنها الفرصة الأخيرة... فإما أن تتحصل على ذلك القدر الذي ينقصك من السلطة أو فلتمت والعبرة تخنقك..

ـ لابدّ أنهم لن يجدوا مرشحًا أقوي مني يضمنون به فوزهم في الانتخابات القادمة... نعم قادمة، فلكي يحدث سلام لابدّ أن يتبعه تحول في طريقة الحكم، ولا بد أن يكون ذلك عن طريق الانتخابات.

عرف هو ذلك قبل عامين من توقيعهم لاتفاق سلامهم، وقبل سبعة أعوام من موعد تلك الانتخابات المنتظرة.

كم كان ذكيًا ولماحًا!!!.

لكنها السياسة وألعابها القذرة... تحتاج بالطبع إلى الذكاء، لكنه إذا كان مفرطًا قد يودي بك خارج ميدانها.

اقترب ضحكه أن يتحول إلي بكاء وهو يعود إلي أوراقه ويكتب من جديد

العام ثلاثة وألفين:

مرة أخري..

يبدو أن حياتي تتلخص بين ثنايا ذلك العام الفجيعة!.

وصلت فيه إلى قمة طموحي، وانزلقت فيه كذلك إلى قاع الذلة

والمسكنة... فبينما كنت أهيّئ نفسي للجلوس على ذلك الكرسي، وجدت نفسي خارج ذلك القصر. إنها السياسة! قد تجبرك على اختزال سنوات عمرك التي تجاوزت السبعين في عام واحد ـ ثلاثة وألفين ـ ويبدو أنني لم أفلح تلك المرة في إخفاء رغبتي في بقايا تلك السلطة، والقانون المعمول به لا يسمح لأحدنا أن يعطي ما عنده لآخر. فكان القرار بطردي من جنتهم، فقد اقتربت من تلك الشجرة المحرمة دون أن أعمل حسابًا لشر من كنت أحسن إليهم دائمًا.

كنت داخل غرفتي أتجول بين أوراقي ودفاتري، أصوغ مسودات بعض البنود والمقترحات لقضايا التفاوض الذي كنت أتأهب للمشاركة فيه بغية الحسم الرابح ـ كما كنت أظن وأتمني ـ و لكني كعادتي، كنت عن طريق تلك المسودات، أرسم خارطة طريقي إلى كرسي الحكم.

أخبرتني إحدي العاملات بأن هناك من ينتظرني في صالة الضيوف. خرجت على غير عجلة من أمري، واثق الخطي، كأني أعلم هوية من ينتظرني، بل وفحوي ما جاء من أجله، وما إن لمحته حتي قلت في نفسي والغبطة تسكنني:

ـ نعم.. ! إنه رسول القصر..! أنا أتمني وهم ينفذون..! أنا أتنبأ والأقدار تسير على خطي نبوءاتي لا تحيد عنها أبدًا .

تملكني شعور بالعظمة والفخر وأنا ألقي عليه التحية، وهو يقف لمصافحتي، وأنا دون قرار مسبق مني أشرت إليه بيدي أن يجلس دون أن أصافحه أو أعيره أي اهتمام. جلست نشوانًا، يملؤني الزهو حتي خيّل إلى أنني أستطيع أن أقول للأشياء: كوني!.

تبعني بالجلوس دون أن يتفوّه بكلمة أو يعبّر عن رفضه لما بدر مني، لكنه لم ينكسر وإنما رفع إليّ رأسه وواجهني بنظرات ثابتة ـ تجاهلتها ـ ثم قال كلمات معدودات:

ـ إنهم يكوّنون لجنة، أو أمانة للخرطوم عاصمة الثقافة العربية للعام خمسة وألفين.... ويسألونك لو تتشرف بالمشاركة والتحضير.... .

وجدت نفسي واقفًا وقد استعار وجهي وجهًا آخر، واستبدل لوني لونًا آخر، وفكري فكرًا آخر أيضًا ، حتي أنا أظنني تحولت إلى شخص آخر لا أعرفه، فصارت الكلمات تتطاير من فمي وأنا أصرخ حينًا وأتساءل حينا آخر:

ـ أمانة.. .؟!

ثقافة.. ؟!

عربية.. .؟!

مشاركة...؟! .

أنا..؟!!

ثم بدأت ألملم شتات تلك الكلمات شيئا فشيئا وأصوغ منها جملًا ربما تكون أكثر وضوحًا، وأنا أصرخ في وجه محدّثي في غبن :

ـ من هم الذين يكوّنون.. ؟!

ـ ومن هم الذين يسألونني.. ؟!

ـ أنا...؟! المشاركة.. ؟!!.

وفجأة استعاد وجهي جبروته وطغيانه، وقبل أن أزيد كلمة أخري لتلك الارتعاشات والانفعالات المتلاطمة، تبعني محدّثي بالوقوف في هدوء يحجب عن نفسه شظايا ثورتي.

قال:

ـ إنما أنا رسول يا سيدي...

عند لحظات النهايات المرة تصبح الرسل أذكي من الملوك. نعم فالرسل لا تؤذي وإنما يكون الرد على من أرسلها، وليس من شيم الملوك الانتقام من رسول أعزل. وأذنت له بالانصراف.

وكانت النهاية.

نظر إلى ما كتبه قليلًا فتقمّصه ذلك الإحساس من جديد، وتمنّي لو يكتب عامًا آخر ويضع تحته خطًا ثم نقطتين فوق بعضهما وشرطة ويعقب ذلك بجملة مقتضبة، كتلك التي أراد أن يبدأ بها ويكتب هذه المرة:

.....:-

ـ كان موتي...!.

لكنه ما زال يتمسك بشيء من الحياة وهو يقف عند خط استواء الحياة والموت لأجل ذلك الكتاب وتلك السيرة.

ومرّت الأيام والشهور وهو يفكر في محتويات ذلك الكتاب وفصول تلك السيرة دون أن يدوّن منها شيئا على الأوراق، وأصبح يضيق أكثر فأكثر بزوجته التي تشاركه البيت وشيئًا من الذاكرة وقليلًا من الحزن وكثيرًا من الألفة، ربما كانت تزعجه بمداخلاتها أثناء استغراقه ومحاولاته اليائسة، أو ربما لأنه لا يستطيع أن يعترف بظلمه لها الآن، أو يتنازل لها عن دور البطولة في زواجهما، ذلك الذي كان شراكة ظالمة، أحدهما يعطي والآخر يطلب المزيد، فهو يظن أنه يستحق أكثر دائمًا بل ويزيد أحيانًا أنه عليها أن تقدم قرابين الولاء

لجلالته، لذلك ظل وجودها إلي جواره في لحظات ضعفه كناقوس الذاكرة الذي لا يهدأ وانتقام الدهر الذي لا يرحم.

قال في نفسه وهو يغري أوراقه:

ـ سأقدم قربانًا من نوع خاص وأهديه لجلالة الكتابة...

فكر أن يعتذر من زوجته.... من أبيها... من أهلها... من رزقها... ومن ذلك السراب من السلطة. فكر أن يواجهها... يصارحها.. .يصالحها..

لعل ذلك يقتبس مشهدًا مصغرًا لمواجهة الناس لكتابه المنتظر. هل سيصالحونه أو يلقون به إلى القمامة.

أصبح كالغريق يتعلق بالقشة بعد القشة في سبيل نجاته وخروجه من دائرة الألم مع ذكرياته وتاريخه. فأصبح لأجل ذلك يفعل كل شيء يتوهم أنه قد يساعده ويقربه من أقلامه وأوراقه. وزوجته تحفظ له الود رغم اعتراضها على ما آل إليه حاله، فهو اعتراض مشفوع بشفقة وتعاطف، ولعل ذلك ما زاد عليه إحساسه بالضيق والرفض. أراد أن يتقرّب إليها قليلًا ويمحو ذلك التعاطف ويبدو لها في صورة أكثر اتزانًا، ويفهمها أن ما يعيشه هذه الأيام إنما هو مخاض عسير لمولود عاش عاقًّا في رحم الماضي وهو فقط يريد أن يغسله من ذلك

الماضي اللعين. أراد أن يفسر لنفسه سر اهتمامه بها واطمأن إلى أن ذلك يفسره أنه الآن قد خطا أولى خطواته في طريق مصالحة الأشياء وقبل كل شيء مصالحة نفسه.

شعر بمزيج من الحنان والحنين وهو يتمني لقاءها صباحًا وهو بين أوراقه المبعثرة الخالية أمامه، وهي قد استراحت إلى غفوة من الزمان في غرفة نومهما التي قل أن تجمعهما في الفترة الأخيرة. وضع قلمه الذي ألف أصابعه دون أن يسيل من حبره شيء وتوجّه ناحية تلك الغرفة التي تحوي محبوبته الجديدة. وقف عندها ويده اليمني تمسك ببابها ويده اليسري جعلت تتجول بين مقدمة الرأس الأصلع وخلفيته المبعثرة الشعر الأبيض الناعم، ولحيته المتنافرة الشعيرات، وعينيه الناعستين. ترك الباب ووجد نفسه في مكان آخر وأمام مرآة كبيرة وتواجه الشبحان...! يرفض كلاهما الآخر، كان لقاء الصمت والرفض الخجول. وبعد دقائق معدودات حوت عددًا مقدرًا من السنين والعقود في حساب الذاكرة والنظريات التطورية في شكل الإنسان منذ الطفولة وإلى أن يعود إليها كهلًا يفقد كل ملامحه ويتحوّل إلى شبح وذكري إنسان. بدأ يتلفت حوله باحثًا عن تلك المعينات التي ربما تتحايل على بصمة السنين وأثرها على الشكل والصورة. امتلأ حيوية ونشاطًا فشعر وكأنه قد محا من عمره نصف سنينه، حاول الوقوف معتدلًا أكثر أمام ذلك الشبح الذي كاد أن

يفارقه، ثم تحاورا قليلًا فمحا من عمره أعوامًا أخري مقدار ما يكفي لحياة إنسان آخر حتي كاد أن يعود من طفولة إلى طفولة، فليس لمن يحبو إلى السبعين من عمره عمر واحد.

وأثناء ذلك الانزلاق العمري، تدحرج بين تضاريس السنين واستقر في سنين صباه، فتذكر فطومة وارتسمت على وجهه ابتسامة محت من عمره سنوات أخري، وتمثلت له زوجته في صورة فطومة، تلك الأنثي القروية الملامح والعواطف، فبكى على حب قديم! وابتسم يستقبل حبًّا جديدًا بطعم المدينة! ورغم الفوارق والسنوات، تحسس قلبه ذات الطعم وذات اللهفة.

وكعادته تلك الأيام وزهده في النوم والفراش، نهض متسارعًا وقد غطت الحيوية سنوات عمره السبعين والشمس بعد لم تجرؤ على الظهور. وتوجّه ناحية مطبخهم العظيم الذي لم يره مرة أخري عقب انتقالهم إلى قصرهم هذا. ارتبك من كانوا في المطبخ، لكنه قابلهم بابتسامة ودودة ـ استغربوها جميعًا بقبول زائد ـ. أخبرهم أن يحضروا له ولزوجته الشاي في الحديقة. ثم همس إلى إحداهن أن تخبر زوجته بذلك. تبادلوا النظرات بابتسامات وتعابير متفاوتة وهو يخرج متحمسًا يمشي على أطراف أصابعه حتي لا تنتبه زوجته القادمة عبر ممر آخر. حيث أشارت لمن بالمطبخ كعادتها بالتفاتة خفيفة دون أن

تتكلف عناء السلام أو حتي تحية الصباح ...

ـ الشاي بالحديقة يا سيدتي... لقد أمر بذلك سيدي وهو ينتظرك الآن...

نظرت نظرة رفض واستغراب إلى محدثتها وقد علت ناصيتها تضاريس الغضب فاقترن حاجباها واتجهت ناحية الحديقة. كان صاحبنا يجلس جوار ذلك الكرسي، يراقبه بابتسامات متقافزة وهو يدعوه للاهتزاز مرة تلو الأخري بقدمه اليمني، ويظل يرتّب الكلمات والجمل التي يستقبل بها محبوبته الجديدة ـ القديمة طبعًا ـ. وقبل أن يستقر على عبارة تصلح للقائه القادم بعد لحظات، داهمته محبوبته مسرعة ناحيته، وقبل أن تصل تمامًا، بادرته وقد كسا وجهها مزيج من الرفض والاستغراب ونظرة ودودة وابتسامة لا تتفق مع وجهها:

ـ إن شاء الله خير.....؟!!!!

ثم ألقت بجثتها على ذلك الكرسي دون استئذان أو انتظار لإجابة من صاحبنا الذي وقف ليستقبلها دون أن يتمكن من نطق شيء وإن حزّ في نفسه ما حلّ بذلك الكرسيّ المحبّب إلى نفسه..

هكذا بطريقتنا السودانية الخالصة في الاقتحام وإفشال محاولات

التقارب العاطفي والإنساني باستخدام لغة لا يمكن أن تفلح معها لغة أخرى مهما كانت قوتها وشدة الرغبة التي تسبقها... جملة وحيدة أرجعته غصبًا إلى ذلك الشبح الذي لم يجد بدًّا من تقمصه مرةً أخرى، فجلس جوارها وكأنه لم يقضِ الليل يهيئ لهذا اللقاء أو كأنه لم يتجول بين الكلمات يصوغ منها ما يصلح لهذا اللقاء..

شربوا الشاي ولم يزد حديثهما عن رفضها لما لحق بالحديقة من عدم ترتيب... ورفضه الصامت لتجاهلها له وما لحق به من فوضى وهوان..

وفجأة هبت واقفة دون استئذان أو أي علامة سابقة تنذر بذلك، ليضج الكرسي في اهتزاز فوضوي أقرب إلى الترنح.. وصاحبنا يراقبه مرة، ثم زوجته التي كادت أن تختفي داخل القصر..

الابتسامة وحدها لا تكفي لمحو ما قد أفسده الدهر..!

قال ذلك وقد هدأ ذلك الكرسي وعاد إليه الوقار من جديد.. وهدأت ثورته، وصاحبنا لا يدري ماذا يفعل بعد فشل محاولته الأولى، فكر أن يجلس على ذلك الكرسي ويعود إلى الكتابة والتاريخ.. لكنه لمح إحدى عاملات القصر قادمة ناحيته لتحمل تلك الأكواب الفارغة فترفّع أن تراه محتارًا هائمًا ودون أن يدري مدّ يده إلى تلك المجموعة الهائلة من الصحف ـ إصدارة ذلك اليوم ـ الملقاة إلى

جانب تلك الأكواب دون أن يراها قبل تلك اللحظة، جعل يقرأ ويقلب عددًا من الصفحات دون أن يتجاوز ما يقرؤه عينيه أو يصل إلى عقله فيفهم معنى ما قرأ... برهة من الزمن مقدار ما يسمح لتلك العاملة بمغادرة ذلك المكان. أنزل تلك الصحيفة... وهو ينظر بطرف عينه ويتأكد خلسةً أن تلك العاملة قد اختفت وابتعدت عنه، شعر بارتياح عابر، لكنه عاد مجددًا إلى تلك الصحف، شدّه عنوان، صيغ على طريقة الهتاف والجمل الصحفية الركيكة...

رفرف يا حمام... وصل قائد السلام..

فهم مباشرة أنهم يقصدون جون قرنق، قال في نفسه معزيًا:

لا يمكن لمن عاشوا أبطالًا وقت الحرب أن يعيشوا أبطالًا وقت السلام ـ إنه قانون الطبيعة ـ وأنت يا عزيزي قرنق لقد سمحت لك الحياة على غفلة منها بذلك، فاحذر أن يصيبك ما أصابني فقد كنا أبطالًا وقت تلك الحرب، وأنت اليوم يحفك الحمام وأنا....

ابتسم باستهزاء وبشيء من رثاء وأضاف:

أنا.. لا شيء..!

كنت أحسدك على حب الناس رغم ظهورك بالزي العسكري، وأظنك كنت تحسدني على خوف الناس مني رغم عباءتي الجميلة

والأيادي الناعمة.

ثم تنقل بين تلك الصحف جميعها، دون أن يستغرق ذلك زمنًا يذكر.

تعجب لوطن يصدر في يومه أكثر من عشرين صحيفة دون أن يجرؤ أحدهم على قول الحقيقة، أو تختلف أي صحيفة عن أختها في شيء سوى تلك الأسماء المتشابهة هي أيضًا. تركها جميعًا ودخل إلى غرفة باعدت بينه وبينها هموم السلطة ثم الذكريات. جلس قبالة تلك الشاشة العملاقة وأمسك بجهاز التحكم وأصبح يتنقل بين القنوات هائمًا لا يستقر على أيّ منها. فكر أن يعود إلى واقعه قليلًا فنظر إلى جهاز التحكم وحرّك إبهامه يضغط عليه فكتب الحرف »S« وبحث قليلًا، فداهمته قناة السودان بتعاليها على الواقع ورسمها لواقع آخر في مخيلتها ومخيلة من كانوا يحكمونه، وهم يعيشون خارج حدوده لا يعرفون عنه شيئًا، كانوا ثلاثة، بينهم مقدم البرنامج الذي كان أكثر ثرثرة من ضيوفه الكرام، فاجأه أحدهم لحظة فتح القناة:

نحن أرض الحضارات ومهدها.....

ثم تحدثوا عن نبي الله موسي عليه السلام وقصته مع فرعون وشق البحر وقالوا إنها كانت في أرض النوبة شمال السودان وأن البحر كان هو النيل كما ذكر في القرآن باسم اليم وساقوا لذلك الأدلة

والبراهين....

قال وهو يسكتهم ويتجول بين القنوات:

وأين أنتم الآن.... ؟؟

استقر دون وعي منه أو قصد على إحدى قنوات الأطفال التي تبث أفلام الكرتون ومغامرات ذلك الفأر وتلك القطة المنكسرة أمامه دائمًا، وقد شاركهم هذه المرة كلبٌ أكثر أناقةً مما ينبغي، خالطه فرح طفولي وهو يتابعهم، وارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة فارقها مدة من الزمن.

تذكر قرنق، فتتبع أخباره والاحتفاء الجميل بعودته حتى طغى اسمه وغطت صوره على كل شيء، تعجب لتناغم الاحتفالات..

الخرطوم عاصمة الثقافة العربية.. وعودة قرنق.

هي رسالة من رسائل الأقدار لمن يفهم.. كلما احتفلنا بالعروبة شدتنا إفريقيا إليها... وكلما احتفلنا بإفريقيا شدتنا العروبة أيضًا... نحن هكذا.. تتجاذبنا العروبة وإفريقيا..!!

هذه الاحتفالات أصبحت فقط تمثل ظهوره القليل الخافت، بعد أن كان رجل المهمات الصعبة والمستحيلة، تذكر بشيء من الأسى

وقليل من الحزن هذه المرة ذلك الرسول الذي أتاه يسأله المشاركة في تحضيرات العاصمة الثقافية العربية، وهو يشارك اليوم كضيف شرف في إحدى ندواتها!! تعمّد أن يتحدث عن قرنق ولقاءاته السابقة به، احتفى الحضور بذلك على غير استغراب.. تفاجأ هو..!! لأن عنوان الندوة كان عروبيًّا أصوليًّا.

لم تفلح محاولاته المتكررة في الهروب من آلامه وكتابه المنتظر، في بعض الأحيان يشعر بنفسه متصالحًا أو ربما شعر بذلك التصالح بعدما أصبح لا يشعر بالأسف الشديد أو الخيبة عند مشاركاته الاحتفالية بأشياء ثانوية كما يراها، في البدء كان يظنها إذلالًا له، لكنه تصالح معها شيئًا فشيئًا... هل لأنه فقد الأمل في العودة للأضواء والسلطة من جديد، أو أنه فقد الرغبة في ذلك أصلًا؟

لم يكن يدري إجابة، لكن زوجته ما زالت تتابع أحواله برفض مستمر، حتى إنها اتهمته بالجنون وهو يتحمس للمشاركة في ندوة في منتدى صغير، هو نفسه يشعر بغرابة يخفيها لأنه فقط من يعرف أنه يمكن أن يفعل أي شيء يباعد بينه وبين كتابه وتاريخه. يهرب بكل شيء حتى إنه شارك في افتتاح صهريج ماء هو يعرف أنه ربما توقف بعد يومين عن العمل وضخ المياه....!!

التقى مصادفةً أحد أصدقاء الماضي، هو يعرف أنه يشبهه كثيرًا في

الطموح وربما الأساليب، كلاهما استفاد من الآخر يومًا ما، بطريق ما.

كان لقاءً بنظرة للحياة مختلفة، صاحبنا فقد الأمل في كل شيء، وصديقه ما زال يعمل كل شيء لأجل شيء ما.

ربما لأنه ما زال يملك بعض العمر، تحاورا قليلًا، تركزت أسئلتهم في سؤال واحد:

أين وصل بك الحال؟؟!

بدا صاحبنا أكثر ثباتًا رغم خروجه المذل من اللعبة، وبدا الآخر أكثر ارتباكًا، فهو يخشى صاحبنا ويكرر اعتذاراته لغيابه عنه فترة أفول نجمه، يخشى في سرّه أن يعود فجأة للضوء فيتضرر هو من ذلك، تقبل صاحبنا اعتذاراته لأسبابه الخاصة غير أنه صدمه بقوله:

كيف حال الكتابة معك..؟؟!

صمت كلاهما... أضاف:

عرفت أنك تمتلك صحيفتين ومطبعة... بل ودارًا للنشر أيضًا.

لم يفهم الصديق المرتبك معنى سؤاله ومغزى كلامه، كلاهما يتحاشى الآخر ولا ينظران إلى بعضهما.

أتذكر..

رد مسرعًا:

ـ ماذا ؟!!

عندما كانت الأحلام أكبر من حدود الوطن..

أطرق برهةً ثم ردّ متسائلًا:

وهل تغيّر الوطن ؟! أو تغيرت الأحلام؟!

لا. . . بل تبددت الأحلام وتبخّر الوطن.

ماذا تقصد.. ؟؟!

تبخّر الوطن بالانفصال..

ما زلنا بعيدين عن العام 2011م، وعند ذلك الوقت، سيختار الكل الوحدة بلا شك.

حاول أن تلتقي عيناهما، ليرى إن كان صادقًا فيما يقول أم لا، ولما وجده ينظر إلى شيء ما في البعيد، واصل حديثه:

لا تكترث لكلامي أيها الطموح، فأنا الآن كما تعلم خارج رقعة الشطرنج.

لكنك الوزير.. أقصد كنت الوزير...

في الشطرنج، الوزير يموت ليحيا الملك..

لكنك لم تمت بعد..

بل شبعت موتًا، وأخذتم جميعكم عزائي ـ فرحين ـ

حدق به مستعطفًا بوحه، ماذا يريد أن يقول، حاول تهدئته....

لم يفرح أحد.. !!

الموت... ! أنت يمكنك أن تتحدث وتكتب عنه أفضل مني بالتأكيد.. أتخشى الموت ؟!! هل فكرت يومًا... كيف ستموت.؟!

لا..

سكتا قليلًا، ينتظر أحدهما الآخر أن يقطع ذلك السكون.. ثم أضاف صاحبنا دون أن يكسر سطوة الهدوء والترقب:

هل تراني أصلح للدور الجديد.. جندي.

بل أظن أنك ستعود.. الوزير.

ثم هل صحيح ما يتناقله البعض أنك ابتعدت زهدًا وأنك تدوّن تجاربك.؟؟

بل أكتب مذكراتي...

كنت قليلًا ما تكتب..

وما زلت ـ فكرت أن أستعين بأمثالك، لكني تراجعت عندما تذكرت كتاباتك باسمي.. أتذكرها؟؟!!!

تجولت نظرات صديقه في المكان وهو يخرج من حلقه أصواتًا يفهمه بها أنه يجرحه بكلامه هذا ويحرجه... ضحك صاحبنا هامسًا في أذن صديقه كأن هناك من يتسمّع حديثهما:

لا تقلق.. فكل الوطن يتقن هذه اللعبة.. أم أنك تركت الكتابة للآخرين؟!.

افترقا وعاد إلى منزله يمشي بعزة وفرح لأنه شعر بأنه على الجانب الأقوى في ذلك الحوار وذلك اللقاء، لأول مرة يشعر أن هناك من هو أسوأ منه وأدنى منه منزلةً، فكر أن يتحدث عن صديقه في بعض فصول قصته حتى يضيف إليها وجوهًا أخرى للقبح.. فكر أنه بذلك يدفع عربون صداقة لشعب تأذّى منه كثيرًا، فهو بذلك يمنع عنه أذى وجه آخر وقبح آخر.

سأسميه باسمه... لا... سأشير لاسمه بحروف فقط، فليكن «م . ف.. »

ثم بدأ يتذكر مواقفه مع صديقه م . ف... وحكاياته، حاول بقدر الإمكان أن يستجمع مواقفه التي لم يتشاركها معه، لعله كان يبحث عن بطل شريك في قصته، وهو بالطبع يعرف الكثير عن أصحابه، فقد كان جزءًا من سياسته أن يجمع قدرًا كبيرًا من فضائح وتجاوزات من كانوا معه حول السياسة والسلطة. وربما كانت تلك من الحوارات الصامتة التي تضمن استمرارهم في مناصبهم. انشغل بصديقه م. ف.. قليلًا، فأصبح يجمع أخباره الحالية ويدوّن بعض قصصه الماضية، داوم لبضعة أيام على صحيفتين يمتلكهما م . ف.. وعدد من الأعمدة والصفحات الأخرى في صحف أخرى كان يكتب بها أيضًا.. هو يعرف أن صديقه م . ف.. ساحر الكلمات لحدٍ بعيد ويجيد أيما إجادة السرد والكتابة، لكنه يعرف جيدًا أنه مليء بالطموح الذي يتجاوز أمر الكتابة وشأنها، وهو مليء أيضًا بقدر كافٍ من الدناءة والوضاعة تضمن له تسلق أي سلم، وأي وسيلة يمكن أن تساعده حتى يصل إلى مبتغاه...

تابع كتاباته وصفحاته وأعمدته لأيام فتأكد أن صديقه ما زال يعمل بجد، وما زالت غايته تبرّر له كل الوسائل.

ما زال يكتب للوزراء وأصحاب السمو ويمهد للقرارات الصادمة ويروّج للسياسات والمخططات....

هنالك من يبيعون أقلامهم، وهنالك من يبيع الحرف والكلمة، ويقبض ثمنها وعودًا ومناصب وترقيات، غير آبهٍ بماء وجهه ولا دموع قلمه.

وجده يكتب بطريقة غامضة عن الوحدة والانفصال، تغيّر وجهه لذلك وقال في نفسه:

لقد كان بالأمس القريب يحدثني عن الوحدة ومبشرًا بها.

أيقن ساعتها أن صديقه م..ف.. جزء من مخطط ما لتبرير خطوة قادمة، وتأكد في داخله أنهم بطريقة ما يعملون ويجمّلون الانفصال ويفرشون الأشواك وينفّرون من الوحدة.

واظب على صفحات الصحف التي تتبع لـ م . ف.. أو لمطبعته أو حتى لدار نشره، أدهشه ذلك التناغم الذي ينتهي بالدعوة لذات الفكرة، وفي أول جمعة بعد لقائه به، وجد بعض السطور على جانب من الصفحة الثقافية لا تتماشى مع النهج العام للصحيفة والصحف تلك الأيام، ويبدو أنها قصة ستنشر على شكل حلقات، كان عنوانها «رسائل بعد الموت» وتحت العنوان مباشرةً كُتب اسم كاتب تلك الرسائل بطريقة غامضة.

رسائل بعد الموت!!!
تكتبها س . ح.. .

أحس بغموض في العنوان وطريقة التعريف بالكاتب، بدأ يقرأ أولى حلقات تلك الرسائل، وجدها كلمات قوية جدًّا لا تتناسب مع هشاشة الجمل والمواضيع التي احتوتها تلك الصحيفة.. قرأها فشعر بأنها تعنيه هو بالذات، والأقدار فقط من تكفلت بتوصيلها له.

ـ نعم إنها تشبه كثيرًا ما كنت أفكر به لكنني لم أعرف كيف أصوغها.

شكرًا لك يا س.ح...

ولكن كيف سمح م . ف.. بنشر هذه الكلمات وهذه الرسائل في صحيفته الخاصة.

وجد نفسه يحفظها من أول مرة قرأها، وعند آخر جملة من تلك الرسالة الأولى وجد وعدًا مرهقًا.

نواصل الأسبوع القادم !!

لماذا لا يواصلون غدًا... ؟!

تساءل وهو يستجوب ذاكرته من تكون س . ح.. هذه؟؟

لم يتذكر اسمًا مشابهًا، وشعر بأنه مجرد اسم مستعار، فما زال الوطن لا يجرؤ على كتابة مثل هذه الرسائل. كانت الرسالة الأولى تقول:

«رسائل بعد الموت»

تكتبها س..ح..

«إليك أيها الكاتب العظيم. . .

إليك أيها المراوغ الأعظم...

إليك يا من تجيد الكذب جهرًا، وتستحي أن تقول ما تريد، فتكتب ما يريدون، لتتلطخ المطابع بما تخرجه أقلامك التي تظل تتقيأ ألف مرة قبل أن تستجيب لأوامرك بالكتابة ...

وليتها لا تفعل.. !

إليك يا من نسجت بعبقريتك المسلوبة ألف قصة ورواية.. إليك استقالتك عن الكتابة، فلا حاجة للكتابة إليك بعد اليوم.

لأنها تعي تمامًا أنها أنثى، تحترم تاءها المربوطة جيدًا. والأنثى لا تعاشر من وثقت مراوغته، وسئمت تدنيسه أشياءها التي تخفيها عن الملأ إلا هو..

أيها الكذوب ألا تحفظ عرض من أهدتك نفسها عارية تلتهب في جوانبها كل أسباب الأنوثة المغرية. ألا تستطيع بعد أن أخذت من حديقتها أي زهرة شئت، وتعطرت بأي عطر شئت.. ألا تستطيع أن تحفظ سرها، وتكتفي بتجريحك لها أنت وحدك دون غيرك!..

لكن هيهات!! فالأنثى عندكم مستباحة ...

جاءتك عذراء ـ يملؤها الحياء ـ أهدتك روحها لكنك لم ترضَ إلا بجسدها.. فكانت عاهرةً على يديك..

دعوت لها جميع من انتخبتهم في دوائر الولاء ودق الطبول باسمك تعظيمًا وتبجيلًا، فبعد أن كنت كاتب المؤلفات، أصبحت كاتب التقديم والتمهيد لكتاب المؤلفات.. ألا تخجل من نفسك يا كاتب المقدمات العظيم؟؟!! أم أنك خلعت ثوب الحياء يوم أن تبرأت من أبطال قصصك الذين لم تستطع تحريكهم كما تشاء،

فتحركوا باسمك في أحضان آخرين؟ أم أن مقدماتك تلك هي رشوة للقارئ حتى يمرر هذا المؤلف أو ذاك، نسبةً لاحتوائه على لا شيء سوى مقدمتك التي هي نفسها تحتوي على لا شيء سوى اسمك الذي يأتي في مؤخرتها أو ربما في مقدمتها أو حتى على الغلاف المزركش الجذاب.

كتبٌ بلا كتابة ولا كتاب..

إنها تجارة الأسماء..

هكذا القراء في بلادي ـ قبل العنوان ـ يسرعون إلى المؤلف وحروف اسمه فقط تكفي لتقييمه ورفعه إلى مصاف الكتب النادرة، وهي أيضًا كفيلة بأن تجعل القارئ يقذفه جانبًا لا يلقي له بالًا..

ما أسخف القراء في بلادي

بل ما أسخف الكتاب في بلادي

أليسوا هم من يحترفون تجارة الأسماء؟؟

أليسوا هم من صنعوها وابتدعوها، ليقع القارئ فريسة سهلة ومستهلكًا شرهًا لمنتوجاتهم الفاسدة.

والآن أيها الكاتب العظيم، دعني أدعوك لنمارس معًا تجارة

الأسماء.. أنت باسمك.. وأنا بكتاباتي، أنت بشهرتك وأنا بنصوصي العارية، أنت بابتسامتك وأنا بدموعي...

هل فهمت لماذا كتبتُ أنا استقالتك عن الكتابة نيابة عنك؟؟!

نعم لأكتب أنا نيابة عنك أيضًا.. فأنت لا تصلح للكتابة، أنت فقط تدنس شرف الأقلام، أنت....

لا تغضب يا عزيزي من تلك الكلمات الغاضبة، فأنت حقًّا لا تصلح للكتابة..

سأكتب أنا نيابة عنك مأساتي.

مأساة أنثى بلا أمٍ ولا أبٍ ولا حبيب.

مأساة أنثى تعيش كل لحظة فجيعة فقد الوالد والحبيب.

مأساة أنثى ترى فيكم قاتليها وقاتلي أبيها وحبيبها.

مأساة أنثى لا تراكم إلا بعين المظلوم، تترقب دورة الأيام لتنتقم لحبيبها قبل أبيها، ولأبيها قبل حبيبها. وتنتقم لكل لحظة ألم عاشتها وكل لحظات الذكرى والبكاء.فعندما يلتقي الجيشان ـ جيش أبي وجيش حبيبي ـ وأفقد أنا كليهما لا أظن أنه ينبغي لأحد أن يسألني من منهما شهيد؟!.ـ فلا شهيد غيري ـ وحدي أنا...

والآن أيها الكاتب، لن أطيل شرح مأساتي فالمجلد يحوي كل أناتي، وكل صرخاتي وارتعاشاتي. فقط تذكر أنني أدعوك لنمارس معًا تجارة الأسماء.. ليس تمريرًا لمؤلفي برشوة القارئ ولكن رشوة الكتاب والناشرين باسمك أيها الكاتب العظيم..!!

لا تستعجب الأمر يا عزيزي فما يمارسه الكُتّاب مع القارئ سنمارسه نحن اليوم معهم.. وعفوًا أيها الكاتب إن فقدت الصبر أمامك وتساقطت مني بعض الدموع!! تلك التي دائمًا ما تشكل جزءًا مهمًا في خارطة النهايات الحزينة، ولكنها عندما تأتي في البداية.. فلا بد أن هذه البداية هي مقدمة لنهاية لن تكون إلا حزينة أو ربما غير سعيدة على الأقل.. وأنا أيها الكاتب العظيم كانت الدموع بدايتي ثم شكلت نهايتي وما بينهما كانت الدموع زادي.

لا تسألني كيف؟ أو تستبعد الأمر فمحتوى هذا المؤلف يفضح الكتاب، ولو قرأ أي كاتب هذا المجلد لأسرع إلى مباركة ما جاء فيه في محاولة يائسة لإخراج نفسه من زمرتهم، وليقول جهرًا بأنه كاتب صادق.

قبل أن تستفهم عن ماذا سيتغير لو نشرته باسمي أنا ؟؟...

سيتغير الكثير وهنا مكمن الرشوة.. فاسمي ليس معروفًا ولم يتردد في الصحافة أو الإعلام، لذا سيسرع كل من وخذه المجلد

وكان ذا رأي مسموع.. سيسرع إلى الطعن في المجلد أو حتى تتفيه أسلوبه وفضح تفاصيل الحبكة الروائية فيه كذبًا وتهكمًا وبهذا لن يربح المجلد شيئًا.

أما وضع اسمك في غلافه فهو الحامي له من النقد غير الموضوعي.. واسمك أيضًا هو جواز سفره إلى صفحات الصحف وأغلفة المجلات.

أليس اسمك رشوة يا عزيزي؟!!« .

نواصل الأسبوع القادم!

ـ آه ما هذا الجمال... ما هذه الرصانة.. وما هذا الصدق... لو أنني فقط أعرف من تكون س..ح.. هذه لكتبت بقلمها ما عجزت أن أكتبه بقلمي أنا، لو كنت أعرفها لكانت خير جليس وخير راوٍ لكتابي المنتظر. كيف أنتظر أسبوعًا كاملًا حتي ألقاك ثانية، من أين لي كل هذا الصبر؟! وماذا سأفعل طيلة هذه الأيام؟.

ومرّ ذلك الأسبوع وأيامه الستة، من سبتها إلى خميسها، بين احتفائيات الكل بعودة قرنق وقليل من فعاليات العاصمة الثقافية العربية الخرطوم.

ـ الكل هنا له مزاج واحد ويسهل اقتياده لأي شيء ترغب فيه

النّخب أو من يقرّرون أنهم قادة المزاج العام...

يفكر أحيانا في من تكون س..ح.. هذه ويعقد مقارنة علنية أحيانا أخري برسالتها الأولي وصديقه م.. ف..، ينتابه شعور مؤكد أن الأمر لا يمكن أن يكون صدفة هكذا أو مجرد قدر ذلك الذي قاد تلك الرسائل أن تنشر بإحدي الصفحات التي تتبع ل م.. ف... ومؤكد كذلك أن الأمر أكبر من المصادفة أن يقرأها هو بالذات وفي هذا التوقيت، تلك الأيام بالتحديد التي يعاني فيها الإرهاق بسبب أمر الكتابة وتفكيره بإضافة بعض الفصول عن صديقه م..ف..

شعر بقلق عابر حيال فكرة غامضة، أن هناك من يتجسس عليه وأن س..ح.. هذه تحاول أن تساعده بطريقة غير مباشرة، لكنه استعاذ بالله من الشيطان الرجيم وقال:

ـ لن أخلط الأوراق ببعضها البعض، فأنا أريد أن أكتب تاريخي، وربما تاريخ بعض من كانوا معي.. أنا فقط أبحث عن طريقة أكمل بها مهمتي وأتمكن بها من كتابة قصتي..

ـ فقط ما يجمعني بتلك الرسائل وكاتبتها س..ح.. «التكنيك» طريقة الكتابة، ولا شيء غير ذلك.

ورغم ادعاءاته ومحاولاته الهروب من تفكيره في تلك الرسائل،

أصبح في الحقيقة لا يفعل أي شيء غير انتظاره لموعد نشر الرسالة الثانية، وإلا فما هذه الحيوية والنشاط وهو يكاد يخرج بنفسه ليأتي بتلك الصحف إلي قصره في يوم الجمعة على غير عادته، تلك الصحف التي ربما قضت يومها دون أن يمسسها بشر خلال الأشهر القليلة الماضية في ذات القصر .

اتكأ على كرسيّه الهزاز، وكثير من اللهفة تبدو على وجهه وهو يتصفح ذات الصحيفة، يبحث عن تلك الرسائل التي تأتي بعد الموت، تلك التي تكتبها س..ح..، وبابتسامة عريضة استقبل تلك الرسائل وكأنها رسائل عشق!

« رسائل بعد الموت
نكتبها س..ح..

«نحن لا نكتب لنستمتع بقدرتنا على الكتابة وإن كانت المتعة هي الخط الفاصل ما بين الكتابة والرتابة.. أو ربما كانت المتعة رشوة القارئ أو ربما الكاتب نفسه حتى يواصل الكتابة، فنحن نكتب لنتعرف على أنفسنا ولنختلط بالكلمات والأوراق، نخرج من دهاليز عقولنا وقلوبنا ما يسمى أدبًا!!.

نحن نكتب لنفضح هذا أو نكشف عورة ذاك.. وليس «هذا» أو «ذاك» هم أشخاص بعينهم، ولكنهم يمثلون المرآة التي تعكس وجهًا للحياة في بلادي.. «فنحن نفضحهم حتى نتجنبهم ويتجنبوا هم ما يفعلون».

دعنا نمارس معًا التخفي والاختباء، سأختفي أنا بمجلّدي هذا خلف اسمك، فلا أستطع أن أرى حياتي

تباع في الأسواق ويتبادل السمّار أطرافها.. فمجلّدي حياتي.. وحياتي هي مأساتي.

دعني أختبئ خلف اسمك، فربما لن يعرف القارئ أن تلك الأنثى العربيدة هي أنا.. أو ربما أنا نفسي عندما أقرؤه أنكرها ولا أتعرف عليها..

لا تستغرب قولي يا من اسمك هو طوق نجاتي، فلا بد لحياتي أو مأساتي أن تنشر عبرةً لمن يعتبر، وغصةً في حلق كل من لا تعتبر، ولا أستطيع أن أنشرها باسمي لأنني مهما بدلت ومهما غيرت في أسماء أبطالها وتركت اسمي فقط على الغلاف، سيقدر القارئ الثرثار على فك الشفرات وستلاحقني التهم والافتراءات.

دعنا نخدع القارئ مرة لصالحه!

دعنا نخدع الكتاب مرة ونسوقهم لما نريده نحن لا ما يريدون.!

ألستم من تجيدون التحرك كما يريد الآخرون؟؟!

دعنا نكون الآخرين هذه المرة.

دعنا نذوق طعم الهزيمة والانتصار معًا!!

دعنا نصوغ من حياتنا رواية جديدة.

أنا بمأساتي، بكل تفاصيلها، بكل سنينها وشهورها ولياليها...

وأنت بحياتك منذ بدأت الكتابة وإلى أن يصلك مجلدي هذا.. بكل ما فيها من تحولات وتغيّرات..

أكتب عن بدايتك بالكتابة الصادقة التي تسربت إلى قلوب القرّاء تعبيرًا عنهم..

أكتب عن انتهائك بالكتابة الكاذبة المراوغة.

أكتب عن حياتك ما بين الصدق والكذب، ما بين الفقر والغنى، ما بين الكرسي وعدمه، ما بينك وبين نفسك..

أكتب عن كل شيء.. عن أحلامك المؤجلة، عن قنابلك الموقوتة التي حان وقت انفجارها.. عن حياتك وأنت الكاتب العظيم.. ثم بعد ذلك عن حياتك وأنت كاتب التقديم والتمهيد وعاجز عن الكتابة التي تجيدها.

أكتب عن لحظة الإعدام التي عشتها يوم أن تركت

القلم وانشغلت بالكرسي الفاخر... عن لحظة الميلاد الأولى لعبقريتك الروائية.. عن ثورة الأقلام يوم أن ثارت تطالب ملكها بالرجوع.

ها أنا ذا يحركني عشقي لرواياتك القديمة.. يحركني قلبي.. يحركني قلمي.. يحركني شوقي لأدعوك لنكتب معًا رواية.. رواية كتلك التي كتبتها يوم أن ولدت عبقريتك الروائية.. رواية تعيد العالم أجمع إلى فن الرواية...

نعم أنا أدعوك للكتابة !!!

لا أظن أنني أحتاج لأن أستحلفك حتى لا تسيء فهمي.. فأنا أدرك تمامًا كيف أنك تستطيع أن تجمع بين كتابتي لاستقالتك عن الكتابة، ودعوتي التي يملؤها الرجاء لك كي تعود إليها..!

أثق تمامًا في ضميرك الحي الذي يحتاج فقط إلى بعض وخزات الإبر الصينية.

أرجوك أن توقع على ورقة استقالتك عن الكتابة.. لتعود إليها..

أرجوك أيها الكاتب العظيم..!!«

نواصل الأسبوع القادم

* * * * *

لم يتوقف كعادته عند ذلك الوعد «نواصل الأسبوع القادم». بل جعل يواصل بتفكيره ويحاول أن يتخيل مضمون الرسالة الثالثة، فقد أرعبته فكرة أن ينتظر مرة أخري أسبوعًا كاملًا، أسبوعًا كذلك الذي مرّ وكأنه عام من التفكير والانتظار وارتباك المشاعر واشتباك الأحداث. و ما لم يكن يعلمه أن هذا الأسبوع سيبدأ بداية صادمة، تمامًا كأفلام التشويق والإثارة، ففي أول أيامه غطي الوطن دخان كثيف، وتلفح وشاحًا أسود، وبكي لفجيعة جديدة.....

مات قرنق....

قيل إنه حادث طائرة.. وقيل إنه اغتيل.. وقيل إنها الأقدار..... وقيل..... وقيل.....

لكنه فقط من يعلم معني ذلك فقد حاول أن ينبهه ليأخذ حذره، فللأحلام قيودها في هذا الوطن الغريب.

ـ ربما مثل هذه النهايات تليق بالأساطير والأبطال...

ـ ولأن غياب الأبطال يحدث تأثيرًا تمامًا كحضورهم، فقد أعقب موته ما أعقبه، فأصبح الوطن يغلي والأحداث كذلك تغلي وصيادوا المواقف كأمثال م.. ف لهم القدرة على استغلال أي شيء ـ حتي الموت ـ فأصبحوا ينادون ويصرحون بطريقة مقززة، ثم كتبوا بصراحة أكثر وأشاروا إلى أنه قد انفرط عقد الوحدة بموت قرنق، في إشارة لدعوة مبطنة، سرعان ما كشفوا عنها ـ إنهم لا يرحمون الأموات ولا ذكراهم ـ

مرّ الأسبوع سريعًا هذه المرة لا كسابقه وها هي جمعة أخري ووعد بلقاء رسالة ثالثة قد يتحقق اليوم... أمسك ذات الصحيفة وبحث عن رسائله صفحة، صفحة بل سطرًا سطرًا دون أن يجد ما يبحث عنه أو ما يسد رمقه، بل لم يجد أي ذكر لها أو وعد أكثر قسوة بالانتظار أسبوعًا آخر ربما....

ـ هل ما زالوا يتحكمون في ما تنشره الصحف وتبثه قنوات التلفاز!.

ـ هل مازالوا ينادون بالحرية في صباحهم وعند المساء يعاقبون الأحرار..!.

فكر أن يتصل تليفونيًا بصديقه م..ف..ويستفسر عن غياب تلك الرسائل، لكنه تراجع لأسباب مختلفة. وفي صباح السبت الباكر، وجد نفسه عند مدخل تلك الصحيفة، تردد قليلًا لكنه قطع حبل التردد بدخوله المباشر دون أن يتوصل إلى قرار بالدخول أو عدمه. استقبله الصحفيون والعاملون بحفاوة بالغة وتبرع أحدهم:

ـ الأستاذ.....«يقصد م..ف..» موجود في مكتبه الآن... تفضل من هنا...

تلكأ صاحبنا قليلًا وهو يعتذر لذلك المتبرع ومقدم الخدمات ـ المتسلق بالضرورة ـ

ـ ليس الآن.. سوف أراه لاحقًا... أنا هنا من أجل زيارة للصفحة الثقافية...

أكمل جملته وهو يحاول أن يرسم على وجهه ابتسامة مرهقة، يمحو بها ذلك الإرهاق البادي على وجهه. ثم اصطحبه ذات الصحفي الخدوم وعرفه بالمسئول عن القسم الثقافي، كان منهمكًا بين الأوراق، أشعث، أغبر، كثيف الشعر غير المصفف. لم يكترث كثيرًا وهو يمد يده لمصافحة صاحبنا الذي قال في نفسه:

ـ أنت هو من أبحث عنه بالتأكيد، وعدم ترحيبك بي سيفك

عقدة لساني، وربما أصبحت احتمال جليس...

حاول أن يعرّف نفسه وكاد أن يقول أنا.....

لكن الصحفي قاطعه:

ـ معلوم... وطبعًا غني عن التعريف...

وأفهمه بعد ذلك أنه فقط يتساءل عن سبب الزيارة لا عن من يكون.

ارتاح كثيرًا وانزاحت كثير من الحواجز بينه وبين الصحفي، وشعر بكثير من الألفة في هذا التعامل الخالي تمامًا من أي رياء أو مصالح. اعتدل في جلسته وتنفس الصعداء وبادره قائلًا:

ـ أنا هنا من أجل رسائل بعد الموت...

ظهر عدم الرضا على الصحفي وتحول لأوراقه وهو يقول:

ـ لقد أوقفها.....«يقصد م..ف..» ، ومنع النشر.

كاد أن يصرّح له بهواجسه، تلك التي غالطته وأرهقته ـ كيف سمح م..ف..بالنشر أولًا ـ وما منعه أن يبوح بذلك إلا إحساسه بأن الصحفي تعامل معه في رده المختصر ذاك، لعلمه بالقواسم المشتركة والمدرسة التي ينتمي إليها كلاهما ـ هو و م.. ف..ـ فقد

فهم أنه جاء من أجل أن يوقف النشر أيضًا.

ـ هو لا يدري أنني أكملت فترتي في تلك المدرسة...

تلبّسه إحساس بالهوان من تلك الفكرة وتلك النظرة التي انتشلته من شروده وتوهانه والصحفي يواصل مستهزءًا:

ـ هو يري (يقصد م..ف..) أنها لا تتناسب وما يمرّ به الوطن من تحولات وأحزان...

ويحوّل نظره الي أوراقه دون أن يقطع تسلسل الكلمات والفكرة.

ـ ولا أظن أن الوطن سيسمح مرة أخري بنشرها أو ربما يأتي جيل جديد يقلّب تلك الدفاتر والأكوام المكوّمة من المنشورات الممنوعة ويجرؤ عليها يومًا ما ويقوم بنشرها...

شعر صاحبنا برغبة قوية في إنهاء تلك المقابلة وتحرّج أن يطلب نسخة منها، يروي بها ظمأه، ثم أخيرًا تمالك حروفه وكلماته وفي عيونه نظرة خوف ورجاء:

ـ كيف يمكنني أن أحصل على نسخة منها ـ كاملة ـ ؟!.

ـ لقد فات الأوان قليلًا.. عذرًا...

عاد إلى منزله ـ عفوًا قصره ـ وهو لا يدري هل سمع حقيقة

اعتذار ذلك الصحفي، وهل هو أصلًا سأل عن تلك الرسائل وبقيتها، وهل حقيقة أن صاحبتها أخذتها في ذلك اليوم صباحًا كما أخبره الصحفي، أو أنه خاف عليها وعلى رسائلها منه فقط ليس إلّا... هو لا يدري. يخاف من كل فكرة أو خاطرة تقود إلى أختها.

ـ ماذا سيحدث إذن لو تعرّف هذا الصحفي على كل تفاصيل سيرتي؟!. وكيف هو الحال يا نفسي؟!...

ـ ما أهون البطولات الزائفة....

زوجته الرافضة، وقليل مشاركاته الباهتة لم يفلحا أن يبعداه عن تلك الرسائل وصديقه م..ف.. ومحاولاته سرد سيرته القاتمة كما يراها عند منتهي سباق الحياة وذلك الصحفي وذلك الهوان و....

جمع بعض القصاصات والوريقات المتناثرة من سيرة حياته، لكنه على غير العادة اعتني أكثر بتلك الصحيفة، وهو يضع إصدارين منها فوق بعضهما دون اهتمام منه لفارق الأيّام بينهما ـ ستة أيّام كاملة من سبتها إلى خميسها لا تعني له شيئًا ـ وبوصف أكثر دقة، هو يضع تلك الرسالتين فوق بعضهما ويقرأهما كنص واحد.

ـ ما أتعس القارئ، حين يقرأ نفسه بين سطور كتاب أو قصيدة... وما أتعسني وأنا القارئ والكاتب معًا....

محاولة أخري يائسة منه وهو يستعير إحساس صديقه م..ف.. وهو يصوغ جملة يصف بها كيف أن صديقه منع النشر والسبب الحقيقي وراء ذلك، لكنه تسلل بطريقة جديدة إلى أحزانه وبدأ يتقمّص دور الكاتب والكتّاب، صديقه مرة، والصحفي مرة ، وس..ح.. مرة ، ثم شيئًا فشيئًا بدأ إحساس غريب يقود تصرفاته، وقناعة أكثر غرابة منه بأن اختلاط الأشخاص في شخصه الآن وتداخل الأفكار والأبطال في ذهنه هو تكوّن لكتابه في رحم الأيام، ولابدّ أنه الآن قد اكتمل الصياغة والأحداث وسيخرج قريبًا.. حروف مبعثرة ستلتقي ببعضها ونقاط سوف تجتمع بحروفها قريبًا أيضًا....

ـ لقد كانت سيرتي نطفة، تكوّنت علقة برفض زوجتي، وصارت العلقة مضغة بلقاء صديقي وتدخل قرنق، ثم عظامًا تكسوها لحمًا تلك الرسائل وذلك الصحفي.....

هاهي رعشة الوحي تعاوده، وصوت المنادي ينادي:

ـ اكتب!! اكتب !!

عن أي شيء تدعوني لأكتب أيها الوحي الآتي

ما أعجزك أيها الوحي عن الإلهام

ما أنا بكاتب

لن أكتب عن أي شيء تدعوني إليه..

لن أكتب أبدًا كما يريد آخر غيري وأنت أيها الوحي آخر...

سأكتب كما أريد أنا... سأكون أنا الملهم والكاتب.. سأكون أنا الوحي والرسول والكتاب والأمة...

ستختبئين خلفي، وسأختبئ أنا خلفك أيضًا...

سأكتبكِ أنتِ زفرة، وأجعل هذا العام أوانها وزمانها وقت الظلام. أنت سيرتي وحكايتي...

مجلدك ليس عندي ولم أقرأه كاملًا، ولن أقرأه، فسأكتبك كما أراك، لا كما أقرؤك.

امتحان آخر لعين الصدق والرغبة، هل تراها ما زالت تجيد النظر؟!

ستكونين تحفة العام 2005، هذا العام المليء بالأحداث والمتناقضات مثلي.

العاصمة الثقافية العربية، سلام وحروب، ثقافة وجهل، دين

وكفر..

سأكتب بطريقة يظن كل قارئ لك أنه يقرأ العام 2005م.

سأسميك «سارة» ابنتي التي حلمت بها ولم تهب لي، ابنتي التي عشت سنين ألاعبها في الأحلام.

ستكونين ابنتي إذن!.

ابنتي بشرعية الكتابة!! ما رأيك أن ندع الكلام ونبدأ النص...

الفصل الأول:

ولدت فوجدتهم يتحاربون ـ الدولة تحارب بعض المارقين ـ ورغم ذلك كانوا يتزاوجون...

الفصل الثاني:

أحببت، فاشتدت الحرب بينهم وأخذت بعدًا آخر وأرادوا لشعب أن يحارب نصفه الآخر...

الفصل الثالث:

عشقت، فتحولت الحرب إلي ساحات المساجد والكنائس...

الفصل الرابع:

وأصابني الهيام، فالتقي الجيشان ـ جيش أبي وجيش حبيبي ـ

الفصل الأخير:

احتفل الجيشان بشهادة وقداسة موتاهم... ولا شهيد غيري أنا ولا قداسة لغيري، فقد فقدت أنا كليهما ـ أبي وحبيبي.

سأكتبك ليس بطريقة الراوي الذي يروي أحداثًا.. سأكتبك بطريقة القاص عن نفسه سأكون أنا أنتِ، سأخوض في بحرك الأنثوي بكل أشيائه الخاصة ومفرداته الخاصة أيضًا. سنذوب معًا في شخص واحد رغم الفوارق والأضداد، فأنتِ الأنثى وأنا الرجل، أنتِ صاحبة العشرينيات وأنا صاحب الستينيات أو فلنقل السبعينيات، بل ما أعجب أن تكوني أنت أمي وابنتي وأنا!!!...

سأبدأ النص الآن...

(«الخرطوم عاصمة الثقافة العربية للعام 2005م...

لماذا؟؟؟!»

أهي مؤامرة أخرى ليبعدوا روحك عنّي بعدما أبعدوا جسدك عني؟!!!..

لن أغني للعاصمة العربية العربية..

لن أغني للعاصمة الإفريقية الزنجية..

سأغني فقط للعاصمة العربية الإفريقية أو لنقل العاصمة الأفروعربية أو فلتكن العاصمة السودانية، هكذا سأغنّي لها وتجمعني بك، تعتصرك خمرًا وتقدمها لي، وتزفني في ثوبي الأبيض الذي تمزّق يوم أن قتلوني بقتلك يا حبيبي...

ما الذي جاء بي إلى هنا ؟؟! وما هذه الوريقات التي أحملها؟؟!

أشعار حبنا وموتنا، يوم أن غرست روحي وجسدي بين أحضانك، وفعلت أنت ما فعلت وزدت بأن غرست اسمك بين شفتيّ.

أجئت لأقتل روحك بعدما قتلوك هم؟ كيف آتى بك وبحياتك لأنشرها عندهم؟! أليس في ذلك خيانة؟! بل إنها الخيانة العظمى... اغفر لي ذنبي! فأنا ما زلت عند الباب لم أدخل بعد»).

أظن أنها بداية قوية! ألا ترين معي ذلك؟! جدلية الهوية الثقافية... أليس غريبًا أن نوحّد الجيوش ونفصل الثقافة؟... ثغرة في اتفاق السلام. فهناك شيء لم يُقتسمْ بعد! اقتسموا الثروة والسلطة ولم يقتسموا الثقافة.

يبدو أنك لن تكوني البطل وحدك، حتى لا أنسى أنا أيضًا قسمة

الثقافة...

من ستختارين ليشاركك البطولة؟؟!!

سأختار لك أنا!! ليس لأنك الأنثى وأنا الرجل! بل لأنني الكاتب وأنت النص!!!

فليكن أحد موتي الجيشين..

ليكن دينق إذن...

ألا تريْن معي كيف أننا في مشهد بسيط جمعنا بعض متناقضات هذا العام الغريب؟!..

عذرًا لخروجي عن النص... لن أمارس دور المصحح مرة أخري.. اكتبي عن نفسك كما تشائين... وأنا سأختفي... سأتلاشى داخل صوتك الأنثوي وقلمك الأنثوي وأوراقك الأنثوية الباكية...

اكتبي إذن... !!!!

سارة...!

حملت أشعاري ورجعت نادمة الخطى، ساخطة التعابير، واجمة اللسان.. استقبلتني ابنة عمي روز، هكذا صار اسمها بعد أن كان «زهور» و لا أدري كم عدد التغيّرات والطفرات التي حدثت له ليصير «روز»، استقبلتني بحفاوة شديدة، لعلها ظنت أنها تستقبل أحد المشاهير، فلم تلاحظ أن أشعاري بين أحضاني لم تنشر بعد!

روز... أنثى لم تكمل العشرين من عمرها بعد، تعيش حياة غير التي أعيشها، رغم البيت الواحد الذي يجمعنا فأنا أسكن مع عمي هنا في الخرطوم، وأبي يسكن القبر هناك حيث لا قبور. وأمي تسكن قبرها هناك في القضارف، وحبيبي يسكن القبر هناك حيث لا أدري!!..

سألتني روز وهي تستعجل الجواب...

ـ سارة.. ح تبقي مشهورة خلاص؟!

أومأتُ لها بالنفي، فاهتز رأسي..

شعرت بالأسف لأجلي أو ربما لأجل ما كانت تفكر فيه وأنا

أجيبها بتلك الإيماءة الباكية. قالت وهي تتوشح أسىً أنيقًا وكلماتٍ أكثر أناقةً:

Sorry !!... ما قصدي والله...

لم أدرِ بماذا أجيبها أو كيف أتفاعل مع أسفها الأنيق وكلماتها التي لا أعرف استعمالها وانحدرت إلى غرفتي يحملني سيل الدموع...

ها هو ذا مستقبل آخر ينتظرني، احتضنته أنا، وجثوت تحت قدميه أطلب الغفران والسماح... إنه إبراهيم هكذا صار اسمه بعد أن كان «دينق» لكني أعلم هذه المرة عدد التغيرات والطفرات التي حدثت له حتى تحول إلى إبراهيم... طفرة واحدة هي الإسلام!

هي غرفتي أنا... لكنه يشاركني إيّاها... وحدي فقط من تراه طيفًا بعد أن كنت أراه جسدًا...بل وحدي أنا من تراه حقيقة والكل يظنه طيفًا....

أجلسته قبالتي، أتحايل على الذكرى وأمتزج بالماضي ثم بدأ الحوار الصامت بيننا يصدر أصواتًا وضجيجًا وزلازل كونية...

سألته:

...متي التقينا...؟!

منذ سنين طويلة.. كان أبي حيًّا وأمي كذلك هي الأخرى... التقينا في القرية هناك... في المريودة... أو ربما قبل المريودة كان لنا لقاء... منذ قرن أو ربما قرون كثيرة... التقينا وتعانقنا، فتركت بعضك في ملامحي... هكذا لم يكن اللقاء بيننا صدفة!!.

كان أبي معلمًا للعربية، وكان أبوك معلمًا للإنجليزية...

كانا أصدقاء... وكنا أحباء..

كانت نهاية الأسبوع، جاء أبي يرافقك أنت وأبواك، أهداكم إلينا.. وقضينا معًا نهاية ذلك الأسبوع...

اقتسمناكم قسمة عادلة.. أمهاتنا يتبادلن الثرثرة والأقاويل.. أبوانا ينشغلان بكلام لا أفهمه...

وخلوت أنت بي...!!!

لم أكن أدري كم كان عمري، كنت أدرس في السنة الرابعة في مدرسة الأولاد الابتدائية.. فلا مدارس للبنات هناك في المريودة.

لم أسألك كم عمرك؟ أو في أيّ سنة أنت؟ فلم تكن الإجابات تعنيني... لكني استلهمت من ملامحك أنك تكبرني بسنة أو سنتين أو ربما ثلاثًا.

عرّفوني بك فقالوا:

ـ إبراهيم!!

لكنك قلت لي إنك دينق لذلك لم أتعلم أبدًا أن أناديك بغير دينق.

لهونا كثيرًا! وتحدثنا أكثر، عبثنا بجسدينا عبث البرئ اللعوب... لكنها لعنة اللقاء الأول فلم نستطع أن نتخلص من ذلك العبث البريء أبدًا... ظل الظمأ يسوق جسدي كلما رأيتك ليرتوي، وظل الشوق يرسم لكل لقاء سيناريو خاصًّا به، ليصبح كل لقاء بيننا يمتلك خصوصية اللقاء الأول.

وفي صباح تلك الجمعة صحوت مبكرة كعادتي، وجئتك أدّعي أسبابًا واهية أوقظك بها، تمددت بجوارك يلامس كل جزء في جسدي صنوه في جسدك الغارق في النوم. رسمت أنا بذلك دون أن أدري سيناريو الغد المحتوم، فها أنا ذا اليوم بجوارك وأنت غارق في سبات عميق. لعل لقاءنا الأول خطط لمستقبلنا بدقة وإحكام فائقين، ثم أيقظتك بعدها... فهل تراني أوقظك الآن؟!...

عبث الأطفال في المريودة، فوضى الأزقة والشوارع رسما معنا بعض تفاصيل حياتنا... اصطحبتك تحفة أهديها لصويحباتي وأصحابي... كنت أسودَ وكذلك أبواك، اجتمعتم وارتضيتم ذلك

اللون رمزًا ومعبّرًا، وكنا نحن على خلافٍ كبير... لوني أنا بين السواد والبياض وأمي إلى البياض أقرب وأبي إلى السواد يدنو لذلك أهداكم إلينا.

كنت بين أمرين، إما أن أخلو بك وحدي وإما أن أتباهى بك بين أطفال المريودة، لذلك جمعت بين الأمرين وجعلت من سفرك حيلة وأجبرتهم أن نلعب لعب الليل نهارًا... وافقوا جميعًا فقد كنت الملكة يومها... ولعبنا.....

أحدنا يقف داخل «الميس» وهو مكان الراحة والأمان ويغمض عينيه ويعد عددًا

محددًا من الأرقام ونذهب نحن للاختباء والتخفي، ثم يفتح عينيه ويبحث عن الباقين ومن يقبض عليه قبل دخوله الميس يبادله الدور ويذهب هو للاختباء.

كانت لعبة جميلة، جعلت منها معبرًا لأريك مداخل المريودة ومخارجها، أماكن الاختباء والتخفي، وما أحلاها!!

عدنا وكان الانسجام قد اكتمل بيننا، دخلنا على أبوينا فوجدناهما يتحدثان عن شيء أذكره جيدًا فقد استوقفني ووضع في ذهني آلاف الاستفهامات.

كانا يتحدثان عن أشياء كثيرة، كثيرة جدًّا، بعضها بلغتنا وبعضها بلغة أخرى لم أعرفها بعد، لم أفهم شيئًا مما كانا يتحدثان عنه، فقط شد انتباهي واستوقفني كلامهم عن القوانين الإسلامية التي بدأ ينفذها الرئيس نميري...

كنت أعتقد أننا مسلمون منذ عهد بعيد، آباؤنا وأجدادنا كانوا كذلك... لكن التاريخ الذي ذكروه وقتها أذهلني 1983م...

شيء غريب! هل هناك قوانين غير إسلامية لم أكن أتخيّل ذلك.. كنت أعتقد أن العالم كله مثلنا في المريودة... يصلي ويذنب ويستغفر.

ما أبعد المسافة بين المريودة والخرطوم... فها هي روز وها هي أنا... وما أبعد المسافة بين الخرطوم وبين العالم... فها هي روز وها هي من تقلّدها روز في كل شيء... في تفكيرها.. في مشيتها... وفي كل شيء!

وافترقنا!

سافرت وأهلك، لكني نسيتُ شيئًا ما معك.. نسيتُ روحي.. ونسيت أنت اسمك بين شفتيّ.

كان أبوك أستاذًا بإحدى مدارس المدينة -مدينة القضارف- وكان يسكن في أحد المنازل المخصصة للمعلمين، عرفت ذلك من

أبي بعدها. كم تمنيت أن يُنقل أبي من مدرسة المريودة إليكم، فبيوت المعلمين متقاربة حد الاختلاط ببعضها وكذلك أنفاسهم.

ومضت الأيام وأنا أصطحب أبي ذاهبةً إلى المدرسة وعائدةً منها، وكان السؤال عالقًا بذهني.. ليس سؤالًا!! بل أكوامًا من الأسئلة المتراكمة..

متى سنلتقي ثانيةً؟!

ولماذا أبي ناقم على الإسلام؟!

ولماذا ينسب إليه بعض الأشياء بطريقة استهتارية؟!

ومجموعة أخرى من التساؤلات الغريبة..

هل كان أبي يرفض الإسلام أو الرئيس نميري؟!

مؤكد أنه لم يكن يرفض الإسلام... فهو يصلي ويسبح ويستغفر كثيرًا حتى بعد سبّه المتواصل لكل ما ينسبه إليه بسخرية مزرية، كأنه يقول إن تلك الأشياء ليست من الدين في شيء.

1983... ليس هذا تاريخ استلام نميري للحكم، سمعت أنه يحكم البلاد قبل أن يتزوج أبي من أمي أو ربما قبل أن يُولد أبي حتى، لم أكن أعرف بالضبط متى كان ذلك.

ومرت الأيام والشهور، فها نحن الآن في العام 1985م.. ولا أذكر أن هناك شيئًا قد تغيّر ولم أعرف أننا لم نكن مسلمين إلا من أبي.. عرفت بالقول لا بالإحساس.

لا أستطيع في ذلك الزمن البعيد أن أفهم متناقضات أو ربما مترادفات السياسة والدين، وإلا لما اختلط عليّ رفضُ أبي لأحدهما... لكننا على كل حال كنا نهتف دائمًا...

أبوكم ميين؟! نمييري!

أبوكم مين؟! نمييري!

انتهى اليوم الدراسي مبكرًا.. اليوم الخميس، نهاية أسبوع ليتها تكون كتلك!! وكنت أعلم في داخلي أنها لن تكون كذلك، فكم عدد الشهور التي مرت دون أن تأتي؟ وكم عدد النهايات البائسة التي عشتها حتى كاد قنديل أملي أن يخبو وكدتُ أنزلق من التفاؤل إلى التشاؤم ومن التوقع إلى الرفض.

حملت «نوتاتي» فما كنا ندرسه لم يؤهلنا بعد لنحمل كراسات كاملة وإن كان أقراننا في المدارس الأخري لا بدّ أنهم قد حملوها، وذهبت لمكتب المعلمين أتقاسم وحشة الطريق إلى البيت مع أبي..

مكتب!!

جميلة هذه الكلمة.. أطلقتها سهوًا أو ربما اصطلاحًا على ذلك المبنى الذي يماثله في المهمة.. ذلك المبنى الذي تم بناؤه من القصب والقش والحطب.. يقي من حر الشمس ولا يحجبها.

دخلت على أبي.. كان ثائرًا كعادته تلك الأيام، كأنه يحس بشيء لم يشاركه الإحساس به أحد هناك، كان منفعلًا، يغلي كالبركان، متحمسًا للتغيير، يُحدث زملاءه عن تكهنات يُقسم على وقوعها ولم أكن أرى في عيون السامعين تجاوبًا حتى ظننتُ أنهم لا يفهمون ما يقوله أبي، كأنه كان يتكلم بلغة أخرى لا يفهمونها.

وكانت الانتفاضة... !!!

ولأول مرة رأيت عمي.. !!

وتغيرت الهتافات.. وتبدل الخطباء.. كان عمي هذه المرة سيدهم وكم كنتُ شديدة الإعجاب به..

ذرفتُ دمعة، اختلطت بالمرارة والأسى قبل أن أتفوّه بجملتي الأخيرة، أؤكدُ بها فعل الماضي «كنت» وأشدد نفي الحاضر والمستقبل عنها، فكم كنتُ شديدة الإعجاب به.. وليتني ما كنت.. !!

ورغم التغيرات والتبدلات لم يتغير الأشخاص كثيرًا.. ذات الأصوات التي هتفت بالأمس أراها تهتف اليوم.. كل الحسنات

التي ذكرت بالأمس أسمعها تُذكر اليوم أيضًا.. لا مساوئ إلا في الأمس ولا محاسن إلا في اليوم..

عمي وزوجته المتمدنة الحبلى شغلا فكري، فعمّى لا يشبه أهل المريودة في كلامه أو لبسه أو حتى في مشيته.. كان يحمل شهادة كبيرة... لا أدري كيف كان حجمها، واعتقدتُ أنها تحتاج لرجلين على الأقل لحملها...

كان يكبر أبي سنًّا وكان أبي يكبره فلسفةً وقدرةً على الكلام رغم ادعائه هو عكس ذلك.

زوجته !!...

يكفي أن ننسبها إليه لتصفها كما تشاء وإن كانت إلى الترفع أقرب منها إلى الاستهتار بنا والسخرية منا..

وجئتِ إلى الدنيا هناك في المريودة يا زهور ـ عفوًا يا روز ـ ماضي يشين سيرتك الذاتية كما سمعت ذلك من أمك يومًا.

لم تكن الانتفاضة تعني شيئًا بالنسبة للآخرين.. كانت تخصّني أنا.. أنا فقط دون كل المحتفلين بها.. كانت الانتفاضة في حياتي أنا..

جاءت بك إلى الدنيا يا روز ـ جاءت بك في المريودة ـ أتت بك

إلى المريودة لأراك يا عمي.. ونقلت أبي من مدرسة المريودة إلى حيث كنت أحلم وأتمنى وأما إرهاصاتها فقد كانت نهاية ذلك الأسبوع ولقائي بك يا دينق.

والتقينا ثانية.. !!

أبي يتبادل مع أبيك ذات الفصل وذات السبورة وربما قطع الطباشير.

وكنا نحن نتبادل هفوات الحب المبكر حيث بدأت أول علاقة لنا بالإدمان.. أدمنتك وأدمنتي !!

كنت أتوقع أن أواصل الدراسة معكم، لكني فوجئت وأنا أدخل فصلي الجديد بما لم يكن في الحسبان ـ كل التلاميذ من البنات!

كم صعب عليّ وبعيد أن أتخيل أن هناك مدرسة خاصة بالبنات.. وبدأت أبحث عنك في وجوه التلميذات، فليس هذا ما تمنيته وليس هذا ما كنتُ أرجوه..

أين أنت ؟!

صرخت دون أن أدري أن صوتي بدأ يعلو فأَجَبْنَ بصوت واحد:

من ؟؟؟؟!

قلت بذات الصوت الصارخ:

دينق!!

ضحك الجميع.. وبكيت أنا..

غريبة!.. منهزمة!..

هل ستلاحقني خيبة الأمل من جديد

كنا معًا بالأمس مساءً، وكنت أحلم أن نجتمع دوامًا... لسنا في مدرسة واحدة...

سأكتفي فقط بمنازلنا التي أصبحت متجاورة.

قنوعة!!. أليس كذلك؟!.

اجتمعنا اليوم مساءً أيضًا.. مرّ ليل ونهار لم أرك فيهما..

قلت لك أنني «مشتاقة» فلم تفهم أنت قصدي ولم أعرف أنا كيف أقولها لك، فلم أسمع بعد تلك الكلمة، وليتني ما سمعتها ولا تعلمتها.. لساني لا يجيد الكلام وقتها، أما جسدي فقد كان فصيحًا بليغًا، لا ينافسه في ذلك حتى أبي ـ أستاذ اللغة العربيةـ تركت لأبي التعبير بالكلمات، وصرّحتُ أنا لتفاصيل جسدي وتجاعيده

وتضاريسه التي لم تختلف بعد عن جسدك الرجولي في شيء، تركت لها التعبير كيفما شاءت.

فارع القوام رغم صغر سنك، شديد السواد رغم اختلاطك بنا وبي. كم كنتُ أخشى أن يخذلني الطول فأصير مثل أمي، أو يخذلني اللون فأصير مثلها أيضًا.

أشياء كثيرة بدأت تجذبني إليك

الطول ـ اللون ـ اللغة

بريق أسنانك اللامعة، وبياض عينيك الناعستين

قلتُ لك يومًا:

ـ أنت وسيم!!

لا أدري بأية لغة قلتها فلا يعنيني الأمر كثيرًا ولا يختلف عندي إن قالها لساني أو قالها جسدي كعادته وحبه للكلام والثرثرة أكثر من حروفي. يعنيني فقط أنك أوسم من رأيت بل أجمل حتى مني أنا الأنثى. تمنيت لو أستبدلك بأسناني كلما كادت أن تحتك بأسنانك، لو أستبدلك بعيوني، بقوامي، بلوني، بكل شيء.

ربما كنت أتمنى التوحد معك لا الاستبدال أو ربما كنت أتمنى أن

تترك بعضك معي فلا أفقدك دفعة واحدة.

طفولتنا كانت أصدق العرّافين بمستقبلنا.. لكن طلاسم هذا العرّاف صعبة، وإشاراته خافتة.

ماذا لو تكلم معنا بلغة نفهمها؟!

«كذب المنجمون ولو صدقوا»

مقولة خادعة ولكنها كاملة، تقول بأخذ كلامهم ورفضه، وربما لقربهم من الصدق بدأناها بكذبهم، ماذا لو صارت:

«صدق المنجمون ولو كذبوا»

ألسنا دليلًا على صدقهم؟؟!!

***

كادت شهور عسلنا أن تنقضي، فستغلق المدارس أبوابها إيذانًا بنهاية العام الدراسي وبداية العطلة الصيفية.

انتهت الامتحانات وكنتُ الأولى!

حملت نتيجتي وقطعت الطريق جريًا ومشيًا، فرحًا وشوقًا، وقفتُ عند باب مدرستكم، وسألت نفسي:

أجئتُ إليك أم إلى أبي؟!

أيكما سيفرح أكثر؟!

من سيحتويني منكما بين أحضانه؟!

تجاهلت الإجابة، فلا وقت للتفكير.. ودخلتُ المدرسة!

كل التلاميذ خارج الفصول، كل يحمل ورقة بين ضاحك وباكي، ولا بد أن بينهم من جرى مثلي ليخبر آخر ينتظره، أو ربما هو من يشتاق إليه فقط.

أبطأت الخطى، أتحسس وجوههم، أبحث عن شخص ما بينهم.. كانت وجهتي أبي.. هكذا كانت إجابة السؤال الأول..

جئت إليكما معًا.

سلكت الطريق إلى أبي وبحثتُ عنك خلاله..

لم أجدك ولم أجد أبي..

خرجت من مكتب المعلمين ولم ير أحدٌ ما كنت أحمل في يدي رغم ترجّيهم وإلحاحهم! خرجت وكأنني لا أسمع ما يقولون ولا أفهمه.. وقفت عند ذلك المستطيل الكبير الذي تزيّنه الورود

والشتلات..!!

ذلك المستطيل الذي يتوسطه شيءٌ عالٍ..

عالٍ جدًا..

كلما رفعت نظري وجدتُ نفسي أحتاج لأن أرفعه أكثر حتى أرى نهايته، وأرى ذلك الذي يرفرف هناك...

يقولون إنه علم السودان!

شدّني إليه لونك الأسود.

في مدرستنا شيء مثل هذا.. مثله تمامًا لا أذكر أنني رأيته أبدًا، أو ربما رأيته دون أن أراه.. ألم أقل لك إنني أعشق الأشياء فقط عندما تكون لها علاقة بك.

اتكأتُ على ذلك الذي يحمل عشقي الجديد في قمته وتذكرت تلك المعلمة ذات الصوت النسائي الذي يدعو إلى الضحك والسخرية، والتي انحصر قدرها عندي بظهورها الصباحي ونحن في الطابور لتصرخ جاهدة إسماعنا جميعًا..

نشيييييييد العلم!

وريثما تنتهي من مدّها المطول ذاك تكون بعض التلميذات ذات الحس الموسيقي غير الموزون قد بدأن الإنشاد لتسكت، ثم تبدأ أخرى لتسكت هي أيضًا فلم ينته المد المطول بعد!

ثم يبدأ الجميع الإنشاد!

لم أحفظ ذلك النشيد، ولم أجد فيه ما يشدني، وكنت أفتح فمي وأغلقه وربما أثناء ذلك قلت بعض الكلام الرافض أو الساخر. كنت أفعل ذلك لأتحاشى غضب المعلمات وسياطهن، فما كانت تلك الهمهمات تعنيني، لكنها أصبحت الآن عشقي.. أنت وكل ما له علاقة بك عشقي وروحي...

وحفظت النشيد:

نحن جند الله... جند الوطن
إن دعا داعي الفداء لن نخن
نتحدى الموت عند المحن
نشتري المجد بأغلى ثمن
هذه الأرض لنا
فليعش سوداننا
علمًا بين الأمم

يا بني السودان.. هذا رمزكم
يحمل العبء ويحمي أرضكم
وبدأ عشقي لشيء آخر
الوطن..!!
نميري.. أبي.. عمي.. أنا.. أنت.. متنافرات أو ربما مترادفات..
فأنا بعدُ لم أفهم العلاقة بينهما..

الدين.. الوطن.. !!

علاقة حرمتُ على نفسي التفكير فيها ورفعتُ رأسي إلى ذلك المرفرف هناك علّني أبدأ حل الامتحان.. مضى وقتٌ لا أعرف تقديره، هو وقت أرغم الوجع فيه رقبتي أن تطأطئ رأسي إلى الأرض..

هكذا دائمًا يجب الوقوف أمام الأشياء العظيمة!

ولم ينزل القلم على ورقة الامتحان!

ألا يكفي لونك الأسود شعارًا؟!

أسئلة أخرى تضاف إلى الامتحان!! وأنا لم أجب عن سؤالٍ واحد بعدُ ولم أكتب حتى اسمي!..

سأعود غدًا إلى مدرستنا وسأرى علمنا هناك.. وسأنشد معهم..

يا بشراي!!

هكذا بشرتُ نفسي بأملٍ لن يتحقق، فعطلة نهاية العام قد بدأت... وكانت البشرى إنذارًا...

سنعود إلى المريودة..! يا أسفى! كم كنت أكرهها.. وكم كنت أشتاق إليها وسألت نفسي...

أين ستذهب أنت؟!

أنا أعرف أنك لست من مدينة القضارف، وماذا لو جئت العام القادم ولم أجدك هنا! هناك تنقلات دورية للمعلمين.. وحسب ما سمعت من أبي فإن أباك قد جاء دوره.. انقضت متعتنا سريعًا..!

مرَّ بجواري تلميذ، ربما كان في عمري.. ناديته ولبّى دعوتي...

لا بد أن أراك لتبشرني بعدم العودة أو ربما بالعودة.. أردتُ أن أسأله عنك يا أبي فسألته:

هل تعرف دينق؟!

استدركت واستبدلت الاسم بإبراهيم

أجاب:

نعم

لكنه أردف إجابته بسؤال لم يجد له حروفًا فقاله وصاغه بعينيه وتعابير وجهه وجسده... لماذا؟؟!!

هكذا كل الناس يتعاملون معك.. حروفهم لا تحتويك أبدًا.. كلهم مثلي! أجبتُ عن سؤاله غير المنطوق بسؤال آخر منطوق... منطوق دون كلام.

أجاب هذه المرة بلسانه فقط، لا يشاركه من جسده إلا يده التي تشير إلى المكان..

- هناك في الفصل.. عندهم حصة مع أستاذ...

إنه أبي!!

عجيبة علاقتي بك... أردت السؤال عن أبي فسألتُ عنك، وأراد هو الجواب عن مكانك فأجاب عن مكان أبي..

كنت أستطيع مراقبة ذلك الفصل وأنا واقفة حيث أنا بجوار عشقي الجديد... وانتظرت طويلًا وطويلًا، كانت أطول حصة أعد ثوانيها وأنا حيث أنا، لم أتزحزح عن مكاني.

خرج أبي... فكرت أن أجري خلفه، لكني لم أفعل واكتفيت بمراقبته ومتابعته بنظراتي حتى دخل ذلك المكتب، جريت بعدها دون تفكير هذه المرة حتى لا أمنع نفسي مرة أخرى وأحرمها اللقاء. جريت نحو الفصل حيث كنت خارجًا لا تترقب شيئًا..

رأيتني.. !!

عبرت عن دهشتك بحذر، لكني لا أعرف الحذر ولا الدهشة..

احتويتك أنا وسط نظرات زملائك الغاضبة التي لم أكن اهتم بها كثيرًا.. ثم احتويتني أنت بحذر أكثر أو ربما رضوخًا لقدرٍ قد وقع..

وتوحدنا للحظات... !!

رفضت أنت بعدها فعلتي، ورفضت أنا رفضك لها... وباركت لي فجذبتك من يدك وجرينا نحو أبي.. تعثرت خطواتك ألف مرة وتعثر قلبي لذلك مليون مرة..

ودخلنا المكتب!.. وكانت خطيئتي الأولى! نظرات أبي كانت بين الحيرة والتساؤل، مددت إليه النتيجة.. أمسكها وهو ينظر إلى يدَيْنا المتشابكتين.. نظرات بين الرفض والتناسي...! يدي تحكم القبض على يدك رغم الفارق بينهما..

بارك أبي ثم بارك الأساتذة والمعلمات.

قال أبي بصوت يخلو حتى من أدنى التعابير الجسدية:

ـ انتظريني يا سارة هنا.

ثم أردف قوله:

ـ وامشي أنت يا إبراهيم خلاص..

أكان يخشى أن نذهب معًا؟!

لم أكن أدري! وبدأت أفهم تعثّر دينق، فقد حملت إلى أبي دون أن أدري البشارة والإنذار!

فعلت شيئًا محرمًا !!!.

ماذا لو رآني وأنا أحتضنه؟!

أكان سيقتله أم يقتلني؟!

ما كان عليّ أن أتسرع في إعلان علاقتنا، فأنت رجل وأنا ما زلت طفلة، طفلة تجيد ما لا يعرفه للكبار!!

صلّيت في ذلك الوقت بطرق أعرفها وأخرى لا أعرفها، وقرأت في وجه أبي آية «سدًا» مرات لا أستطيع لها عدًّا حتى لا يقرأ ذلك

الإعلان غير المقصود، و يبدو أن صلاتي لم تكن كاملة التأثير فقد قرأ أبي بعضًا من ذلك الإعلان الخطيئة..

هكذا أيها الوطن الغريب.. اقترنت علاقتي بك بخطيئتي الأولى...

علاقة أخرى حرمت على نفسي التفكير فيها.

عدنا إلى المريودة

لم تكن بعيدة جدًّا، تبعد فقط بضع كيلومترات لا أكثر.

أمّ تصطحب ابنتها.. وابنة تصطحب حبيبها دون أن تدري أكان هو الصاحب أم هي الذكرى والخيال..

أمّ تتحدث عن شوقها للمريودة وأهلها رغم غيابها الذي لم يتجاوز الشهر إلا بأسبوع أو بضعة أيام.. وابنة تنشغل بما ستحسه من شوق ولوعة ووحدة هناك في المريودة.. وأبٌ بقي هناك ينتظر امتحانات الشهادة الابتدائية..

ستخوض الامتحانات وحيدًا يا دينق!

كم تمنيت أن أبقى مع أبي لأعفيك من امتحاني ـ امتحان الشوق واللهفة ـ وأتركك لامتحانهم...

لكنها الخطيئة الأولى...!

عام وبضعة شهور قد مضت من عمر الانتفاضة، وها هو البيت

الذي عاش أول لقاء لنا يحتضنني من جديد، دخلته وكان القلب يسابق العقل في استجماع فصول تلك الأحداث ووقائع ذلك اليوم ـ يوم أن أهداكم أبي إلينا.. وخلوت أنت بي!!

البيت هو ذات البيت سوى ذلك الشوق الذي ظلّ يحمله للقاءِ آخر ولعنةٍ أخرى!!

المريودة هي ذات المريودة، لم يتغيّر فيها شيء ولم تنتفض كما ظنها البعض، وظنت هي أيضًا أن الانتفاضة تعنيها...

ما زالت مدرستها بلا مدرسة. ما زال مريضها تعالجه الأعشاب.. وما زالت هي تغلي النعناع لألم المعدة والبطن...

شوارعها لا تزال ضيقة، وأسوارها لا تزال من القصب والقش، وبعض بيوتها لا تزال بلا أسوار.

ما زال..... .....

وما زال..... .....

حبوبة زهور ـ اسمك السابق يا روز ـ تتكئ على «عنقريبها» تكثر الشكوى وذكر شبابها.. سلمتُ عليها.. ردت حبوبه زهور كعادتها هناك في المريودة.

ـ أهلًا يا بتّي.. كيف حالك؟!

لذلك فأنا دائمًا تجدني أرد السلام كما ترده حبوبة زهور وسائر أهل المريودة..

احتضنتني، ثم احتضنتها أنا بشوق أقوى.. أرقدتني جوارها تحادثني...

- كبرتِ يا «سَرُّورة»

أفرحني قولها، لكنه حذرني..

ثم تمادت في تحذيرها:

- أنتِ مش كبرتِ..

أنتِ خلاص بقيتي عروسة!!!

قفزت من بين أحضانها، أتحايل على الذكرى والندم.. فلا بد أن أبي يراني كما تراني حبوبة زهور..

مؤكد أنه سيبعدني عنك!

كيف..؟! لا أدري، ربما زوجني من يختاره هو أو ربما من تختاره حبوبة زهور.

رأى يدي تقبض يدك ففزع..

العرض في المريودة أهم من الدين، ولو خيّر أحدهم لاختار الكفر راضيًا دون تردد..!

سخرتُ من نفسي وأنا أفكر بأمر تزويجي فأنا ما زلت طفلة.. طفلة لا يختلف جسدها عن جسد الصبية، ولا تختلف طبيعتها الوظيفية عنهم شيئًا..

ذهلت حبوبة زهور لقفزي من جوارها فقالت تستعجب الأمر:

هيْ بسم الله.. يا ربّي تغتّي عليها!!

ثم أردفت دعاءها:

بي بركة سيدي..... ..... تغتّي عليها!

لم أنتبه لغرض دعوتها التي دعت بها لأجلي فقط شد انتباهي قولها «بي بركة سيدي.....»

فقد سمعت بهذا السيد قبل الآن، تردد اسمه كثيرًا في جهاز الراديو الذي يدمنه أبي.. إنه رأس الدولة، لا بل والده أو ربما جده.. إنه الرئيس.. لا، لا أظن، فالرئيس أصبح يتشكل من عدد من الناس، لا أذكر عددهم.

شدتني مناداة ذلك السيد، فلم أسمع أبدًا من قبل ببركة نميري، أو بركة أي مسئول آخر قبل ذلك اليوم.. ثم عرفت أن مثله كثيرون آخرون...

اختلط الدين بالدولة!!

فامتنع الناس عن التذمر والشكوى مخافة أن يختلط رفضهم لأي شيء برفضهم لقضاء الله وقدره، وبدأوا يشكرون إذا أصابهم خير ـ فقلّ شكرهم ـ ويصبرون إذا أصابتهم مصيبة أو مكروه ـ فأصبح الصبر زادهم!

سألت نفسي:

هل يقول أبي ما تقوله حبوبة زهور؟

كعادتي لم أفكر كثيرًا في كيف تكون الإجابة وتركت لأبي أن يجيب كيفما يشاء!

ثم عاد أبي إلى المريودة ـ احتواني ـ قبلني.. قبلتين فقط! كم كان بخيلًا!! حدثني عن الامتحانات وصعوبتها وأطال الحديث، لكنه لم يحدثني عنك، لم أجد في كلامه ولا رائحته ولا أنفاسه شيئًا منك، وأنا من كنت أتوقع قدومكم معه هدية لنا ولذلك البيت الذي يتمنى لقاءً آخر ليرتعش مرة أخرى ولو للحظات!

كدتُ أن أرتكب الخطيئة الثانية وأسأله عنك، لكن حكمة حبوبة زهور وتحذيرها حبسا لساني ومرّت الأيام والليالي وأنا بين ذكراك ولقائك أقضي أوقاتي وأسامر ليلاتي، أخرج كل صباح أسلّم على تلك الهضبة التي تحيط بالمريودة.. تلك الهضبة التي لم تنتفض أبدًا فما زالت تخضرّ وتبتسم خريفًا، وتكشر صيفًا، أخرج كل مساء أودعها وأتمنى لو تحتوينا معًا هناك خلف أعين المتلصصين.

***

ثلاثة أعوام مرت أو ربما ثلاثون أو ربما أقل من ذلك أو أكثر، أعوام تساوي فترة الانتقال من العام 1986 إلى العام 1989م، كانت أعوامًا، ذُقت فيها من الألم ما ذُقت، وذرفت فيها من الدموع ما ذرفت.

كانت أعوامًا للحرمان!

الحرمان من كل شيء.. منك.. من أبي.. من حبوبة زهور... والحرمان الأكبر من أمي!

كانت أعوام الدموع والبكاء.. حرمني أبي من نفسه وأحضانه، وزاد بؤسي

بحرماني منك. ربما أنا من حرمت نفسي منكما، والغالب أن

جسدي وما بدأت تظهر عليه من علامات اكتمال أنوثتي كانا السبب!

جسدي بدأ يمتلئ ويتنعم وصوتي أصبح مغريًا وعيوني أصبحت تجيد الكلام أكثر من ذي قبل، صدري بات يسهر واقفًا، أنبت هضبات كتلك التي تمنيتُ أن تحتوينا معًا.. حتى أحاسيسي بدأت تختلف وتتغير، ثورة باتت تجتاحني حين ذكراك، وبركان أصبح يتفجر حممًا ونيرانًا حين ألقاك خلسة أو حتى على عجل. صرتُ أداعبك بإحساس غير الذي كنتُ أحتويك به. أصبحت مشتعلة سريعة الاشتعال بمجرد رؤيتك وقبل أن ألامسك أو تلامسني، قبل أن أحادثك أو تحادثني، تنفجر في أعماقي أشياء غريبة على نفسي، أصبحت كالنار تمامًا أزداد بك اشتعالًا ولا أنطفئ أبدًا. لعلها ثورة الحرمان أو لعلها صحوة البركان!!

أبي كان السبب !!.. كان السبب في إدمان جسدي لا روحي لك، فروحي لم تدمنك أبدًا ولم تعشقك أبدًا، روحي توحدت مع روحك يوم لقائنا الأول.. روحي أدمنتي أنا، أدمنت ملاعبة الجسد الذي كانت فيه يومًا...

أبي لم يعطِ جسدي حقه.. حرمه منه.. !!

تعودتُ أن أنام بين أحضانه بل كلما اشتقت إلى ذلك، ادّعيت النعاس وناديت النوم.. حاولت أمي كثيرًا أن تفعل ما يفعله أبي، لكن الفشل دائمًا كان يلازمها، فجسدي الثائر تمامًا كثورة الجسد الإفريقي، لا تقدر أمي على إرواء ظمئه، وإطفاء ثورته...

خسر أبي الرهان!!

وتفوقت المريودة على ثقافته وعلمه، وسعة اطلاعه...

وأنا بعدُ لم أدخل العقد الثاني من عمري إلا بسنتين أو ثلاث أو أقل من ذلك أو أكثر، بدأ يفرض عليّ الحصار، كان يظنه تدريجيًّا، وكنتُ أراه عنيفًا، سريعًا، كان يراقب حركاتي وسكناتي، ويتبارى مع نفسه في خلق الأسباب حتى يمنعني الخروج ويقلل من رؤيتي للناس ورؤيتهم لي، يتلصص على أحلام يقظتي ومنامي، غير مهتم برفضي لذلك رغم أن جميع بنات المريودة في سنّي أو حتي من هن أصغر مني قد تسابقن إلى حجاب زائف، وطفولة تكسوها ثياب أنوثة مكتملة. وذكورك يا مريودة يمرحون بلا رقيب، يعيشون طفولتهم أسيادًا وملوكًا ثم يصبحون شبابًا أكثر حرية، وبعد ذلك شيوخًا تحت مسمّى مراهقة متأخرة. حرمني أبي من أحضانه، من قبلاته، حرمني من كل شيء كان يمكن أن يخفف ثورتي، حبه، عطفه، حنانه، مداعبته....

أرجعت أنا تصرفه إلى خطيئتي الأولى، لكني سرعان ما أيقنتُ أنني أخطأت في ذلك فقد كانت خطيئتي ذرة في بحر مخاوفه وتكهناته. هو لم يكن يدري أنه بذلك إنما ساقني إلى ما كان يخشي.. عذرًا...!

ماذا كان يخشى؟!..

أنا لم أفعل ما يُشين..! أنا فقط أحب.. ! أحب وكفى..!

أحب بكل طقوس الحب المعروفة وغير المعروفة، بكل نعيمه وجحيمه، بكل شيء فيه، بكل فرائضه وسننه ومكروهاته ومستحباته...

عذرًا مرة أخرى..! فالحب عندنا حرام ومُشين..!

والأنثى عندنا ليست إلا إناء يضع فيه الرجال ما يخرجون... والأنثي عندنا لا تختار شريك حياتها، والغريب ربما اختارته لها أنثى أخرى مثلها تمامًا هي (حبوبة)!.

أما كان لأبي أن يشغلني بحبه وعطفه حتى لا أبحث عنهما في غيره.

تبّت يداها المريودة...!!

ألبستني فستانًا طويلًا، واسعًا، أختفي داخله كقشة في بحر، حتى لا أرى -حتى أنا- جسدي أو حتي أفقد الإحساس به.. ثم ألبستني ثوبًا تفتخر به أمي وصاحباتها وكل نساء المريودة عندما يقلن جاهرات بالقول (توب سوداني). حاصرتني، علها تحفظني، أقعدتني في البيت حتى لا أرى الرجال فأثور....

وهاهي المريودة أيضًا تخسر ذات الرهان، ذات الرهان الذي كسبته بالأمس من أبي، فها أنا ذا أحب، وها هو ذا فستاني يحوي بداخله آخر، يشاركني له..

ما بال الصبية يلعبون ويعبثون حتى بنا ـ نحن الفتيات- ولا عيب في ذلك؟! ما بالك يا مريودة تعطيهم وتأخذين منا... منا نحن الفتيات...

«بت الدهب».. !!

«الدهب» اسم يذكرني بعظيم يدعى سوار الدهب عظّمه الشعب بأكمله، ولم يختلف في ذلك اثنان أبدًا أو ربما أنا ظننت ذلك، لا أقول عنه شيئًا سوى اسمه «سوار الدهب» رجل الحكم بعد الانتفاضة..

ها هي ابنته داعرة وعاهرة هنا عندك يا مريودة... ما بالك تعكسين الأشياء أيتها القرية النائية التي لم يسمع بها رجال الحكم! ولماذا اخترت لها هذا الاسم؟! أعرف أن هذا ليس اسمها، وأعرف أيضًا أنها غريبة عنك، جاءت في نهاية فترة سوار الدهب..

أسميْتها قصدًا؟! أم جاء اسمها هكذا عفوًا؟! أم تراك ترمزين به إلى شيء آخر تتكهنين به.. كطفولتنا التي صاغت مستقبلنا بدقة وإحكام.. !

بيت بت الدهب.. !

بيت هناك في ركن من أركان المريودة، لا يحوم حوله إلا قاصد لذة أو عبدٌ لشهوة.. تسكنه بعض الفتيات اللاتي يتحدث الجميع عن

جمالهن، وقدرتهن على الإغراء ـ تديره صاحبة الاسم الأكبر.. بت الدهب..

كل واحدة منهن ربما تعاشر اثنين أو ثلاثة في يومها، أو ربما عشرة، فالأمر لا يعنيها كثيرًا، كل ما يعنيها فقط هو تلك الوريقات المالية التي يتكرم بها الزائر غير المحتفى به كثيرًا وإنما الاحتفاء بما يدفع فقط، زائر ليس له كينونة أو قدر عندهن بل حتى إنهن يتأففن بوجوههم علنًا ورغم ذلك يتمايل الزوار تحت أقدامهن.

المثقفون يطلقون عليهن اسم «بائعات الهوى» أما العامة فتطلق عليهن اسم «.....».

أغلب رجال المريودة تناوبوا عليهن ليلًا أو نهارًا، وكل صبيّ تأكد من اكتمال رجولته هناك، ثم واظب على الحضور لفترة من الزمان، وربما صار ذلك البيت سكنًا ومأوى لبعضهم، وربما اختلط ما يسكبه هذا الصبي أو ذاك في إناء إحدى الفتيات من ماء، ربما اختلط بما قد سكبه والده قبل أيام أو ربما قبل سنوات في إناء ذات الفتاة. وكل هذا وغيره ولا عارٌ عليهم ولا مذمة!!!.. لماذا؟!

كعادتي لن أجيب!!!

لماذا مجرد نظرة منا نحن الفتيات إلى غريب تسمنا وأهلنا بالعار..

وأنتم يا معشر الرجال تفعلون ما تشاءون، ولا عار عليكم ولا إثم، والمقولة الجارحة تتعالى دائمًا.

«في النهاية نحنا رجال!..»

خسئت رجولتكم.. ومع من تمارسون تلك الرجولة المزعومة ؟؟!

أليست كل أنثى مخطئة أو آثمة كما تظنون قد زارها أو شاركها إثمها رجل؟؟!

لماذا تتحدثون عن هذه وتتجاهلون ذلك..

لماذا هي عاهرة وذاك..

«في النهاية راجل!..»

لماذا؟؟؟!! ومن أي القوانين تستنبطون أحكامكم.. وأي دين هذا الذي يقول بذلك ويقره.. لكنها أهواؤكم.. وما تسمونه اصطلاحًا بالعرف..

وأعوام الدموع تمضي والأحداث تتشابك وتتداخل...

عمي!

الخطيب البارع الذي يتعالى صوته هناك في البرلمان باسمنا وباسمك

يا مريودة لم نره ولم يتنازل هو عن بعض زمنه الغالي ليخطف زيارة لنا أو حتى لأمه -حبوبة زهور - لم نسمع حتى بأخباره منذ أن علّمنا الصمت وتعلم هو الكلام، منذ أن اشترى أصواتنا وأحلامنا ودفع ثمنها بخسًا.. دفعه خطبًا وشعارات!..

عمي.. .!

أما آن لك يا مريودة أن تفتحي محلًّا آخر باسمه، محلًّا يناسب الثمن الذي دفعه مقابل أحلامنا.. محلًّا للسكر والليالي الحمراء.. ليحقق كل منا أحلامه، نشرب كأسًا أو عشرًا أو حتى أكثر ثم نقضي ليلتنا بين الأحلام والأوهام.. لنعيشها بذلك حقيقة حتى وإن كانت هذه الحقيقة هي حالة من حالات السكر والهذيان.

أقسم لك يا مريودة، افتحي أنت المحل ولن يخلو من الزبائن ساعة.. افتحي محلًّا باسمه لتكافئيه على إخلاصه وتفاخره بك.. أعرف أن المحل موجود هناك عند مدخلك يا مريودة، لكن اسمه سوف يعطيه جمالًا ورونقًا!!..

عذرًا يا مريودة فأنت لا تعرفين القراءة ولا تعرفين الكتابة.. ولو كنت تعرفين لما كتب عنك آخر ولما استجديت ألف كاتب ليذرف دموع الأقلام كلما ذرفت عيناك دمًا وأنت تقصين عليه سخرية

الواقع من الخيال. بعت قصتك لألف كاتب ولم يبك معك أحد... اعتذر جميعهم لأسباب مختلفة كما تقول ذلك كلماتهم، لكن وقْع تلك الكلمات وما بين السطور وبين الحروف كان يحمل سببًا واحدًا هو....

.

كعادتي أقول... !!

ولو كنت تقرأين وتعرفين الصحف يا مريودة، وما أكثرها عندنا!! بل وما أعدمها!!

صحف «تحمل وقار العلماء، حلم الحليم، تسامح الجاهل، وتعتذر نيابة عن الظالم، على صفحاتها تقرأ الحديث الشريف بمفهومه الخاطئ» انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» كل الصفحات للقادة وأصحاب السمو، كل السطور شكرٌ لله على نعمه التي أفاض بها علينا..

وكم كنت أعجب من «نا» الجمع هذه ـ من تراهم يقصدون بها؟!

تقرأ فتظن أنك في وطن غير الذي تعيش فيه، نعيمٌ على السطور وعلى الحياة بؤس وضنك!

ولو كنتِ تعرفين الصحف يا حبوبة زهور.. لرأيت عمي.. أو وصف آخر أقوله بحذر شديد «ابنك وابن بطنك يا حبوبة».. الصحف تعشقه، وأظن أن المطابع لا تطبع إلا بعد التأكد من صورته

أو اسمه أو حتى بعض الكلام المأثور الذي جاء على لسانه يومًا. صدقيني يا مريودة!.. قرأت كثيرًا عن فخره بك.. فخرٌ يظن كل قارئ أنه يحملك في عينيه، أو أنه بات طريح الفراش شهورًا بعد موتك يا حبوبة..

موتك الذي لم يحضره.. موتك الذي لم يجعله يأتي إليك يا مريودة.. وأقام عزاءً أنيقًا حيث كان..

لا لوم عليه يا مريودة فأنت لا تجيدين الأناقة.

فارقت حبوبة زهور روحها.. ومات عمي ولم يفارق روحه، وها هو آخر على رصيف الفراق..

ماتت أمي.. !

هكذا دون أن أدري علّة لموتها أو سببًا.. والصفحات ملأى بالتهاني والتبريكات وأنت يا مريودة تمتلئين بالتعازي والأحزان. الموت ليس واحدًا وطعمه كذلك ليس واحدًا!!

بعض الناس يموت ويبكيه الجميع، وبعضهم يموت ويبكيه الجميع أيضًا، ولكن بدموع مختلفة، دموع بين الفرح والدهشة والألم العابر والغبن والشماتة، وبعضهم يموت ولا يبكيه سوى أنا وأنتِ يا مريودة!

دينق!!

أين تراك من أعوام البؤس هذه؟! لم يشأ القدر أن يجعلك تغرِّد خارج سرب الأحزان.. كان شوقي إليك همًّا فوق همومي.

كانت ذكراك ألمًا يضاف إلى آلامي.

اكتمال أنوثتي هي سبب تعاستي ومأساتي فلم أعد تلك الطفلة التي تجري للقائك كلما شعرت حتى بمبادئ الشوق إليك.. تلك الطفلة التي تحتويك وتحتويها دون رقيب أو متلصص.. أصبحت السجينة.. سجينة العادات والمخاوف..

سجينة السمعة وسياجها الوهمي.. أصبحت الحبيسة.. حبيسة العرف والتقاليد..

صار عناقنا عارًا

صارت أشواقنا جرمًا

«عار» هل تراها توازي كلمة حرام مثلًا؟؟!

الأولى مأخوذة من قاموس العرف والثانية مأخوذة من قاموس الدين..

العرف.. الدين!!

أيهما نخشى؟! وبأيهما نهتدي؟! ومن قاموس أيهما نأخذ مصطلحاتنا؟!

ماذا لو رآني أبي بين أحضانك يومًا..؟!

هل سيحذرني من النار ويطالبني بالتوبة ويذكرني بشيء من الدين؟!..

أم تراه يفكر في سمعته ومكانته بين الناس...

هل تراه يقتلني..؟!

وإذا فعل.. هل سيقتلني إرضاءً لله، أو حتى لا يطأطئ هو رأسه؟.. لن أجيب..

لن أجيب..

لا مكان للإجابات في رأسي فما أعرفه من جواب يخيفني ويملأني ذعرًا...

حتي أنت يا أبي....

آآه رأسي تتفجر... والأحزان والمغالطات تخنقني وتحيط بي من كل

جانب...

وأنت يا دينق !!! هل صحيح ما يقولونه؟!!

هل صحيح أنك تكرهنا؟!

هل صحيح أنك تكره لوننا غير المعروف له لون؟! وما هي علاقتك بذلك السفاح الذي يقولون إنه سوف يذبحنا ـ جون قرنق.

عذرًا لسؤالي الأخير الذي تعمدت أن أصوغه بإحساس طفل ظلّ كلما خرج إلى الشارع ليلعب، طاردته أمه بالتخويف وهي تقول:

ـ «قرنق بيضبحك.....!»

تقول ذلك دون أن تدري أنها تتنكر للقائنا وتتنكر لبعض ما تحمله بين جوانبها، بل حتى داخل خلاياها من قواسم مشتركة وأصول متداخلة... تقول ذلك دون أن تدري أنها بذلك تقيم حاجزًا جديدًا رغم كثرة الحواجز بيني وبينك..

قرنق وأنت.. قبيلتكما واحدة.

أنا وأنت.. أرواحنا واحدة.

فأيهما تختار؟!

سؤال سابق لأوانه، فما زلت أنت معي وما زلت أنا أسترق الخطى، وأستغفل الزمن لأهنأ بلقاء معك..

الشوارع أصبح يسودها الخوف والهلع... الأطفال تركوا لعب الليل واكتفوا بقليل من لعب النهار حتى لا يصادفهم قرنق.

النساء لا تقول كلمة إلا وتعقبها باسم «قرنق»، كم عددًا من الشماليين قتل وكم مدينة استولى عليها.. ومتى سيصل إلى الخرطوم..

زهد الناس في أمور حياتهم، فتركوا صفوف الرغيف وبطاقات التموين.. شربوا الشاي والقهوة دون سكر، زهدًا في الحياة وقناعة منهم في استحالة الحصول على قطعة سكر أو حزمة رغيف.. وبدأت الحياة تمضي بلا طعم سوى طعم قرنق!

أبي.. !

هو هناك على جانب من الأحداث يراقب.. يتمنى لو لم يتكهن بما تكهن به يومًا.. يتمنى لو لم يفرح، لو لم يصفق يوم الانتفاضة.. يتمنى لو كان سوار الدهب سوارًا من حديد، شديد القبضة لا يعطي ما أخذ أو ما أُهدي إليه..

يا لذكائك يا مريودة.. ويا لغبائي وأهلك يا مريودة! كيف أسأل عن «بت الدهب» أو كيف صنعت لها هذا الاسم.. أنت فقط من

تعرفين الحقيقة والجواب والمستقبل...

ما أتعسك يا أبي!!...

إحساس الخيبة حارق!

ما أتعسك وأنت تعيش الخيبة مرتين.. وأنت تعيش الألم بتركيز مضاعف..

انتفاضة جسدي، وانتفاضتك يا أبي ومن انتفض معك..

لو كان الأمر بيدي لخففت عليك إحداهما... لكن عذرًا..

فانتفاضتي ليست بيدي وأما تلك فلا تخصني!..

وكان الانقلاب..

ورُفعت الأقلام وجفت الصحف!

وسكت الكلام... !!

كل الألوان تجمعت في لون واحد..

اللون الأخضر.. !!

ليس زرعًا، وإنما عسكرًا ونجومًا وصقورًا على الأكتاف...

وتبدلت اللغة، وأصابها العقم، فلم تعد تنجب غير كلمات الأمر والنهي.. وهتفت المريودة مرة أخرى!.. وهتف الناس جميعًا.. الهتاف أصبح عادةً عندنا.. أصبح طريقتنا في التعبير عن الرفض والقبول.. ذات الهتافات تعالت بملامح مختلفة.. ذات الكلمات تعالت مرة أخرى لكن بمعانٍ مختلفة.

وكنت وحدي من يعرف سرّ المريودة، سرّ تصفيقها، وهتافها هذه المرة.. سر الشماتة والتأديب، سر الغبن والأسف على عمي.. ذلك

الذي اشترى ولم يعط ثمنًا.. صفقت لهم المريودة ولم تنتبه لبركات سيدي.. .... ولا إلى ما يعقب ذلك من غضبهم أو غضب الله كما يزعمون..

ثم صفقت الدولة كلها بحذر

بحذر شديد.. !!

فلكل جزء من أجزائها بطل كعمى، ولكل منطقة غبنها على بركات سيدها التي لم ترها إلا في محلات السكر والهوى وهمًا وخيالًا وأحلامًا بل وهراء..

أبي هناك على جانب من الأحداث، يربط يديه خلف ظهره.. رفض التصفيق هذه المرة أو ربما صفق بحذر أكثر خلف ظهره... فهو يرفض اللون الأخضر مبدئيًا، جلس على جانب هناك يراقب، نسي تبشيره بالانتفاضة ونعيمها، وأصبح يتجنب مجالس النقاش التي انعدمت تمامًا إلا مجلس نقاش كل واحدٍ مع نفسه في صمت وهدوء حتى لا يثير حوله الشبهات.

أغلق الراديو.. فقد سكت الكلام!!

ورفض الصحف.. فقد رُفعت الأقلام...!!

وأعلنت جميع دور النشر والطباعة إفلاسها.. إفلاسها عن الأقلام التي لا تجيد التصفيق، أو حتى تلك التي تجيد مع التصفيق شيئًا آخر.

ولا يزال أبي هناك على جانب يرفض التصفيق والمريودة تصفق يملؤها الغبن

وتكويها الحرقة.. ولم يعد عمي حبيب الصحف، ولم تعد المطابع تعرف اسمه، بل حتى أن تلك الصفحات التي صفقت له بالأمس، أصبحت اليوم تصفق لغيره وتلاحقه بالسباب والشتيمة في حذر كأنها تعلم أنها استراحة محارب ليس إلا....

روز!...

لم نلتقِ بعد

أمي!..

هناك في قبرها، وأغلب الظن أنها لم تصفق كأبي فهي لا تخالفه أبدًا!

دينق!.

ما زال اللقاء بيننا محظورًا، محظورًا ككل شيء!..

السوق أصبحت محظورة، البيوت أصبحت محظورة! كل شيء

يحتاج إلى تصريح، وما حصل على تصريح له يحتاج إلى تصريح، والحصول على التصريح نفسه يحتاج إلى تصريح!.

كل الحياة أصبحت تصريحًا ثم مصادرة، حتى الذرة التي نأكلها والتي لا يعرفون لها تصريحًا، ربما سألوا لها عن تصريح ثم صادروها!.

وخمسة من العساكر المدججين بالسلاح، تحملهم عربة، تحمل هي أيضًا سلاحًا، تقف على أعتاب المريودة. لماذا تُراهم قادمين؟!.

ليس بيننا من لم يصفق أو من رفض التصفيق..

صفقنا ولكننا لم نحصل على تصريح نستخرج به تصاريح أشيائنا ووجودنا على أرض المريودة.. صادروا كل شيء.. جلدوا بعضنا فأسكتونا جميعًا.

وذلك الطفل الصغير «عبد الحليم» يتابعهم مدهوشًا شديد الإعجاب بما يحملون، ويعلق تعليقاتٍ لم يفهموها:

«إنتو حقكم كبير! . نحنا حقنا قدر دا.. ويشير بيده اليسرى على يده اليمنى محددًا حجم الذي يمتلكونه بمقدار الكف أو يزيد قليلًا..»

لم يفهموا أنه كان يرشدهم إلى مسدس جده، ولو سألوه لأجاب بسذاجة أنه هناك عند رأس القطية، بين القش فقد رأى جده يضعه

هناك..

«الحمد لله على مقدار ما أُعطي العسكرُ من فهم»!!!. . .

كان حال جده يقول بكل جوارحه وهو يقتلع الطفل عبد الحليم ويبعده عنهم..

وظل العسكر يجوب المريودة، وأبي لا يرفض إلا بقلبه، على غير عادته وذلك أضعف الإيمان!!

عبد الرحيم، صاحب الدكان ـ يقذف بالزيت الذي عبأه للطفل مصطفى، يقذفه منزعجًا على غير عادته هو أيضًا، فقد تعود على غلبة ذلك الطفل وتعود الطفل على ذلك.. ما باله شديد الانزعاج هكذا؟!

العسكر على مقربة منه، وهو الذي لم يجد مكانًا يضع فيه بضاعته غير عربتهم.. فهنيئًا للعربة بما تحمل!.. وهنيئًا للمريودة بما تعطي!..

اختلط طعم قرنق بطعم آخر.. فصار الطعم أقوى تأثيرًا.. وضجّت خيالات الناس بالأحاجي والحكايات المبتذلة، وهم لا يزالون يمارسون زهدهم في كل شيء حتى السكّر وقطع الرغيف..

ما أعمق لحظات التجلّي والتصوف الإجبارية!!! كل الوطن أصبح في حالة من حالات السمو الروحي فترفّع عن كل مطلب،

ورضي بجحيم الدنيا ورفض نعيمها، كل الحياة أصبحت للآخرة فقد أيقن الوطن أن الدنيا قد انتهت!.. وأصبح العسكر وسمارهم يرددون:

«كل شيء لله..
كل شيء لله..
من الصباح لله..
صلاة وسلاح... لله»

توحد الهتاف من جديد، واختلفت الأغراض والمعاني لذات الكلمات.. وعادوا يدعون الحكم بالإسلام، فأصبحت صكوك الغفران وتصاريح دخول الجنة تستخرج من دواوين الحكومة...

وصوتك يا دينق يعلو وأنت تبكي عمك المقتول هناك.. حيث ولدت ورأيت الدنيا... أنت تبكي عمك المقتول.. والمريودة تبكي عمي العائد يجرجر أذيال الخيبة.

دموع مختلفة وأحاسيس كذلك مختلفة، الحزن في الأولى والغبن في الثانية. ألم أقل لك إن الموت ليس واحدًا وإن طعمه كذلك ليس واحدًا.

الحواجز بيننا تزداد يا دينق.. حربٌ وموت.. منتصرٌ ومهزوم!

هل تعانقني وتحتويني وتراني بعين مختلفة، عين غير التي ترى بها خصومكم في الحرب؟!

لست أدري! لكني أنشد من شعري:

ويجلجل الصوت المدوّي
رنة الأحزان في صدري
تستدين القوة من شعري
وتقول في صوتٍ
يمازجه التجني
على مدن التمني
بالتيه والصيت المذاع
أنْ يا أديب
توسد الحلم المضاع!
حلمٌ مضاعٌ وخوفٌ يتعمق وأنا أشاركك حزنك على فقيدك..
حلم التوحد معك.. والحياة بين عينيك!
لكني أعيش الحلم المضاع بحزن أكبر، وقسم أقوى..
قسمًا ببابك!
لن أكون كسائر الشعراء
يندب حظه في الحب

يبحث عن سواك
قسمًا ببابك!
لن أغني غير نظمي في هواك!..

ما بالك يا مريودة، وما بالكم يا أهل المريودة حائرون هكذا؟! وأنا طفلة كنتم تهتفون لنميري! وأنا ما زلت طفلة هتفتم لمن جاءوا بعده.. ثم ها أنتم تهتفون اليوم لهؤلاء!!

إذا كانوا جميعًا يستحقون الهتاف، فلماذا تسبونهم بعد ذلك؟!.. لماذا.. ؟!

هل لأنكم لا تعرفون ماذا تريدون أو من تريدون؟! أو لأنهم جميعًا، لم يكن لكم الخيار في وجودهم؟

وبدأت الحكايات التي يصوغها الناس تتغير وبدأت صورة قرنق تتقهقر كما يصور ذلك الإعلام وكلام الناس..

وبدأت غزوة «بدر» و«حنين» و«تبوك» وغيرها من المعارك والغزوات تعود إلى الآذان وتصير كلام كل من يفتقر إلى الكلام.. وتحولت الحرب إلى جهاد، وصار المشارك فيها يفوز بإحدى الحسنيين.. إما «النصر» أو «الشهادة»!!

من منهما شهيد؟! عمك يا دينق؟!.. أم من قتله؟!

لا شهيد غيري أنا.. ولا شهيد غيرك أنت.. نحن فقط شهداء معاركهم.. ليست حربهم هذه إلا وأدًا لحبنا

فهل سننتصر؟؟

وهل تعود وتعانقني من جديد؟؟

... صارت المريودة كغيرها تنادي للجهاد خوفًا من بطشهم وطمعًا في عفوهم، وسمعتها يومًا تهتف:

بالكيماوي يا صدّام!..

بالكيماوي يا صدّام!..

كنت أظن أن المريودة تعرف من هو صدّام.. لكنها حسبته قائدًا من قوادهم، فلم أشأ أن أصلح خطأها.. ربما لكثرة ما كان يحتاج إلى إصلاح وترميم!.. فقد أدمنا الهتاف دون أن ندري أو نفهم ما نهتف من أجله.. المهم أن نهتف ولا شيء غير ذلك... كنت فقط أهتم بترميم الهوّة التي بدأت تزداد بيني وبينك..

اقترحت عليك يومًا.. وقلت:

ـ دعنا نهرب!..

أجبتني وكأنك تزيح النون من الفعل وتضع محلها حرفًا آخر لتصير «أهرب» وتُجيب بمفهوم الفعل ومعناه.. وأنت تقول:

ـ من ماذا.. ؟ ومِن مَنْ.. ؟ ولماذا..؟!

أنت تعرف كل الإجابات، فلماذا تتهرب من دعوتي لك بالهروب؟!

نهرب من أهلي وأهلك ومن الحقد والغبن الذي بدأ يزداد بينهم... أنا لا أحتمل أن نفترق أبدًا يا حبيبي...

أما لماذا؟..

فلست وحدي من يجب أن تجيب عليه.. لا بد أن نجيب عليه معًا.. لنعيش معًا.. لنبني مريودة أخرى كما نريد!!.. هكذا كنتُ حالمة معك، كنتُ لا أدري أنني أحاول الهروب من مخاوفي في أن تفعل بك المسافة فعلها ويتزحزح حبك لي.. ستسافر، وتتركني هنا بين المريودة والقضارف.. ستسافر إلى الجامعة، هناك في الخرطوم

وتتركني هنا..

من ستقابل هناك؟!.. وأنا لن أقابل أحدًا هنا.

هل ستذكرني هناك؟!... وأنا لن أنساك أبدًا هنا.

هل ستصدق أننا نكرهكم؟!.. وأنا..... .....

كان سفرك أمرًا مزعجًا، لذلك كان لا بد من وداع يتناسب مع مخاوفي وقلقي في أن تفعل الغربة فعلها وأن يفعل بك البعد أفعاله!... لا بد أن يكون وداعًا لا يطرق باب النسيان أبدًا ولا يخرج من بحر الذكرى..

ستسافر في الغد.. وسأراك اليوم!

كنت أنتظرك في المحطة ـ محطة القطار ـ ذلك الذي نسيت عجلاته هذه الخطوط المتوازية أمامي..

سنلتقي هنا..!!

لسنا خطوطًا متوازية!!

جادلتك بقوة وأنت بعد لم تأت إلى المحطة، تلك المحطة التي فيها عدد عمالها أكثر من زوارها، لذلك كنتُ غريبة، تتقاذفني الأنظار، فليس هناك من قطار قادم حتى أنتظر أحدًا..

لم أذهب إلى المدرسة.. لبست زيها الكحلي وجئت لألقاك!!..

كنت منتظرًا هناك.
متلفحًا بوشاح صبري.

مترقبًا وقْع خطاك.
كنت أمتلك المفاتيح السواحر للهوى.
لكنني أحببت شعري في هواك.
كنت لا أدري سجينًا أم طريدًا.
كنت أجيءُ في صمتي ألّحن في سماك!!!
هكذا أمضيت بعض الوقت أصبّر نفسي بشيء من الأشعار، فقد جئت قبل موعدنا بأكثر من ساعة، ويبدو أن الزمن توقف عندها..

وانتظرت العام يتلو العام
أرقب عامي الآتي
وآخر في الطريق سينقضي... !!

انتظرت الساعة دقيقة بدقيقة، وكل دقيقة كنت أعد ثوانيها أعوامًا من الشوق واللهفة!

وأخيرًا.. ها أنت ذا قادم.. وها أنا ذا أجلس فلم تعد قدماي تحملني.. ثم جريت نحوك بعدها وكأن مسًّا قد أصابني.. جريت شوقًا حتى ألقاك بعيدًا عن أعين العاملين والمتلصصين الذين تركوا أشغالهم وأصبحت أنا شغلهم وهمهم.

والتقينا... !!!

سلام ثم همس فكلام

أمسكت يديك وأحكمت القبض عليهما، أقطع عنهما دمك لأسقيهما دمي.

سألتك أن نذهب إلى البيت، فهذا المكان لا يصلح أن يكون مسرحًا للقاء يحمل كل تلك الافتراضات والمخاوف.. فتلك هي دار العاملين وربما جاء إليها أبي.. وذاك هو معهد التأهيل التربوي وربما حضر إليه أبوك..

هكذا تعللت بأسباب كثيرة، كلها لا تساوي رغبتي ذلك اليوم. وسحبتك بعدها إلينا في البيت، وأنت راغبٌ تبدي الرفض، أو ربما أنا من ظننت ذلك.

ونحن في طريقنا، نسيت أنا الوداع، وصرت أفكر في اللقاء القادم بعد لحظات، أصوّر فصوله وأتخيّل أماكنه وأوضاعه..

دخلنا البيت، وفي أول مكان يصلح للجلوس وقعت أنت عليه وصوت الرفض يعلو داخلك، فنظرت أنا إليك وصوت الرغبة يعلو داخلي..

سألتك:

لماذا تجلس هكذا؟

أجبت بكلمة واحدة:

متعب!!

أي نوع من التعب كنت تحس به، لم أكن أدري، لكني جلست بجوارك أمنع جسدي الكلام وأستجدي لساني وحروفي، أستجمع بعض الكلمات والإشارات دون جدوى...

قاطعتني بقولك:

ـ بحبك يا سارة!!

كم كنت غبية حين فرحت بقولك وصرّحت لجسدي بالثورة، فاندفعت أضمك إلى قلبي.. قابلت اندفاعي بهدوء شديد، أحسستك جثة بين أحضاني، فجعلت أنظر إليك برفض وتساؤل، أغمضت عينيك تعتذر لنظراتي ثم أرضيت تساؤلي بقبلات

وضعتها على خدي وشفتيّ.

قبلت اعتذارك، وسحبت يدي ثم وضعتها على كتفيك، وفصل

بيننا الهواء..

قلت لي مرة أخرى:

ـ بحبك يا سارة!!

تريّثت أنا هذه المرة، واعتذرت إليك بنفس الطريقة التي اعتذرت إليّ بها..

قبلات رسمتها على شفتيْك!

وكم كنت تجيدُ الاعتذار وقبوله... !!!

توقف عقلي عن العمل يومها، يبس حلقي وتشمطت عيوني، وحتى أخرج من ذلك التوهان والذهول قلت لك: سأحضر بعض الماء.. !!!

قلت ذلك وقبل أن أكمله وجدت نفسي في مكان آخر، أجلس وحدي ويدي تحكم القبض على وسادة وعيوني تحدّق في اللّا شيء، ورأسي يكاد يتفجّر..

لماذا يرفضني... ؟؟!!

أحزان فوق أحزان، وأثقال تضاف إلى مخاوفي.. ولأنني كنت وسط

العتمة أبحث عن خيط للفجر، تعالت كلماتك في أذني.

بحبك يا سارة!!

ولكن.. !! كيف تحبني وترفضني؟!؟!

هل لموت عمك دورٌ في رفضك لي؟! هل للونك دور.. ؟! هل للغتي أنا دور.. ؟!

تزاحمت الأسئلة والإجابات، فصارت الإجابات تقود إلى تساؤلات، والأسئلة لا تعطي إجابات..

قطعت الطريق على علامات الاستفهام فحملت الماء وعدت إليك...

ما زال حلقي يابسًا.. لم أشرب من الماء بعد. وقفت أمامك وقبل أن أقدمها لك، شربت منها، ثم شربت أنت بعدي جرعات..

كنت زاهدًا في كل شيء ذلك اليوم!

استجمعت قوتي.. أخيرًا سأكلمك...!

قلت:

دينق.. !!!

التفت أنت نحوي.. فلم أكمل أنا وعاد الشلل إلى عضلات لساني..

كيف أعبر لك عن حبي؟! كيف أقسم لك أنني أحبك؟!؟! سلمت بأني لا أعرف الحب وأن الأنثى أبدًا لا تعرف الحب..

وضعت إحدى يدي على فمي، ووضعت الأخرى على (أزرار) ذلك القميص المدرسي الذي ما زال يحاصر جسدي..

خلعته... !!!

وتحسست جسدي فوجدت شيئًا آخر يحاصرني، يختبئ تحت ذلك القميص المدرسي، تخلصت منه هو أيضًا وقذفت به إلى الذي كان يختبئ تحته، وتحسست جسدي فوجدته عاريًا، باكيًا، يحنو إليك.. !!!

صرخت في داخلي وأنا ألامس قماشًا آخر يغطي جزءًا من جسدي «ذلك البنطلون الكحلي المزعج»

صرخت بقوة:

لا. . . لن أخلعه. . . !!!!

واستجمعت قوتي مرة أخرى، فقد هُيّئ لي أنني أكملت الجملة التي رفض لساني إكمالها.. ونادتيك»

دينق !!!

التفت نحوي!... فلم يحاول لساني الكلام وظننت بسذاجة أنثى شرقية أنني أقول ما أريد.. نظرت إليّ، ولم أفهم من وجهك شيئًا، كنت واجمًا تحدق في ذلك الزرع الذي تابعته بالرعاية والحنان حتي صار شامخًا كما كنت ترى، كأنك لم تكن تتوقع أن يحمل كل تلك الثورة، ثم بدأت تحدق في وجهي..

وقفت عند شفتيّ... لا أظن أنك تنكرهما..!!

ثم عبرت سريعًا على خدي.. هل سئمتهما؟؟!!

ثم ضجت عيونك وأنت تصل عيوني.. ماذا كنت تقول؟؟ لا أكاد أقرأ شيئًا!!!

وبدأت الوقوف على قدميك متثاقلًا، وما زالت عيونك تستغني عن خدمات الرموش.. مددت يدك إليّ بارتعاش وتردد، تقبضها ثم تبسطها، ترتجف ثم تتجلد..

لم أمد أنا يدي إليك.. وكم كنت أتمنى.. !! لعلّي كنت أخاف أن تعيدها مجروحة، مرفوضة.. تركت ليدك الخيار...

أين تذهب؟؟!!

وضعتها على خصري فضجت الفرحة بداخلي فها أنت ذا تعود أسير حبي...

كدت أنهي أنا الجدل وأحتويك، لكني قررت أن أتخلى ساعتها عن دور الفاعل..

ما أجمل دور المفعول به !!!!

تمكنت يدك من خصري العاري، واختلط لونك بي، وازدادت نظراتك إليَّ حذرًا وترقبًا.. ونظراتي شبقًا ورعشة...

تبعتك بالوقوف فلم أكن لأفرّط في يدك أو أفقدها..

ما أسعدني بك ذلك اليوم!!

وقبل أن تحملني قدماي، ساعدتهما أنت بيدك الأخرى، فكدتُ مرة أخرى أن أتحول إلى فاعل، لكنك كنت أكثر إصرارًا في أن تكون الفعل والفاعل.

ثم احتويتني بهدوء...

ما كان هدوءك يناسب ثورتي.. فبدلت أنا الأدوار وكدت أمزّقك بين يديّ وهضبات صدري...

وأنت لا تزال هادئًا.. تمرّر يديك فوق ظهري وتعبث بشعري..

قوة غير متكافئة!
كتبت يومها على لسانك:
قولي بالصمت كما شئت
لكني في الحب أنا زنجي
أتراقص عند ليالي الحب الخمرية

ثم هدأت وبدأت أفك وثاقك، فلم تهرب كعادتك من أحضاني، وجعلت أقلدك...كان عناقًا هادئًا، يضج بالحوارات الصامتة والإجابات المعلنة لتلك الأسئلة غير المعلنة.

ثلاثة عشر عامًا مرت على ذلك الوداع وذلك اللقاء وتلك الحوارات الصارخة، ولا أظن أنها ـ تلك الأعوام الثلاثة عشر ـ تمكنت بعد من فك طلاسم ذلك اللقاء.

ثلاثة عشر عامًا وما زلت أجهل بعض معاني الكلمات ولا أعرف مغزاها.. وما زلت أذكر التفاصيل ولا أدري لها تفسيرًا.

خططت أنا للقاء لا تنساه أنت فكان وداعًا لا أنساه أنا..

اختلطت أنفاسك بشعري، واختلطت أنفاسي بصدرك وعنقك... ثم بدأت تبعدني عنك برفق.

قبلتني عند مقدمة رأسي، إحساسي بها لا يزال يجبرني على احترامك واحترام ذكراك، بل حتى اسمك وإن حمله غيرك.. ثم فارقت شفتاك ناصيتي ولم أدرِ أين هبطتا، لم تلامساني ثانية..

رفعت رأسي أبحث عنهما.. كنت كالشمس تمامًا لا يراها الإنسان إلا إذا رفع رأسه.. ليحس بعظمتها وهي تحرق جبينه ويغمض نورها عينيه.

وجدتك تبكي.. !!

شعرت برغبة شديدة في البكاء، وإن كنت لا أعرف لماذا كنت تبكي..

سأبكي معك.. أظنه سببًا كافيًا.

لم أنته من كتابة قرار البكاء بعد، حتى فاجأتني ببصمة ذلك اللقاء..

دمعة من عينك اليمنى تستقر فوق صدري العاري، أحسستها طلقة نارية.. تجمد جسدي بدوّيها فكدت أسقط من فوقي. ألغيت قرار البكاء وعدت أنظر إليها متكورة فوق قلبي.

توقفت الأسئلة وامتنعت الإجابات فمرّ زمان الصمت طويلًا ـ أطول من لحظات الانتظار..

وجدت نفسي على السرير، أشبك يديّ وأربطهما بهندسات مختلفة حتى أجعل منهما دثارًا يحتويني.. فكم كنت خجلة!!

لم تكن بعيدًا عن إحساسي، فقد صحوت من غيبوبتي للمرة الثانية على صوت قميصي المدرسي وهو يهبط على جسدي ـ لم أستطع لبسه ـ فالشلل أصاب يدي، فبدأت أنت تسترني، ودموع عينيك تتقطر عليّ طلقات نارية.

كنت تتحدث بلغة صعبة ـ صعبةٍ جدًّا ـ احتاجت مني ثلاثة عشر عامًا لأفهمها وما زلت لا أفهمها كاملة...

حبي لكِ يمنعني منكِ يا سارة!!!

بأي لغة قلت ما قلت؟! ومن أي القواميس أخذت عباراتك وكلماتك؟!

ما أعظمك! وكم كنت صغيرةً أمامك ، كنت أتناهى في الصغر حتى أصبحت إلى اللّا وجود أقرب مني إلى الوجود.

كم كنتَ فصيحًا وكم كنتُ ساذجة!

عبرت لك بسذاجة أنثى شرقية، فسكبت أنت الدمع تغسلني وتطهر نفسي من شك يقيني في حبك لي..

كيف تمكنتَ من السيطرة على ثورتك الإفريقية؟؟ وكيف تعاليت على ثورتك الزنجية؟؟

ما أوسع المسافة بيني وبينك !

رسمت أنا لقاءً للجنس، فكان لقاءً للروح، فتعلّم القلب أن يصوّر ويحكي شوق الروح.

وسافرتَ أنت إلى الجامعة!

وسافرت أنا إلى مرحلة جديدة من عمري، مرحلة جديدة من إحساسي بأنوثتي ـ فقد كان الدرس واضحًا وبليغًا ـ وكان الأستاذ كذلك أبلغ من غجريتي وشرقيتي وسذاجتي.

أسبوعان فقط ومسرح درسنا يحوي درسًا آخر.. كنت داخل بيتنا أستذكر لقاءنا وأحاول فهم أشياءه ورسائله القصيرة والطويلة، فإذا بأبي يدخل مسرعًا، تتطاير من فمه الكلمات ويعلو الغضب وجهه، وأبوك يجري خلفه يبادله الكلمات والعبارات الرافضة... وفي أول مكان يصلح للجلوس جلس أبوك يتنهد.. وفي نفس المكان الذي جلستُ فيه أنا، جلس أبي يقترب من أبيك ويحادثه...

ـ دعني أسافر ولا تحمل همي...

أجاب أبوك بصوتٍ صارخ..

لا لن تسافر أبدًا..

هل سيسافر أبي إلى الجامعة؟... لقد أكملها..

إلى أين يسافر إذن؟ ولماذا يمنعه أبوك؟!

عرفت الإجابة بعد دقائق قليلة.. فيبدو أن أبي لم يتصالح مع النظام الجديد فبدأ صوته يعلو ـ كنت أظن أن أبي اكتفى فقط بعدم التصفيق.

لكنها لعنتي أنا، ورفضي أنا لما حدث لعمك هناك.. كان الأمر في غاية البساطة بالنسبة لهم، فنحن ما زلنا في بداية العام الدراسي الجديد، لذلك فقد حرروا له خطابًا بالانتقال إلى مدرسة أخرى!!!!

إنها هناك بين دوي المدافع وساحات القتال.. كانوا أذكياء ! فلا بد أنه سوف يهلك هناك، ثم يقولون: مات الأستاذ..... ..... شهيدًا في ساحات التعليم بالجنوب... كان قدرًا محسومًا وقّع عليه وزير التربية والتعليم، وأي تربية تلك التي ترسم مثل تلك الأقدار!..

أصرّ أبي وقبل التحدي..

من تراك كنت تتحدى؟!

أكنت تتحدى المقصلة؟!

وسافر أبي وأبوك غاضبًا، يرفض قبول التحدي، وانتقلت أنا إلى داخلية المعلمات.. أكمل دراستي الثانوية. كانت تلك وصية أبي وطلب من أبيك أن يتعهدني بالاهتمام والرعاية . تحدث معي كثيرًا قبل أن يسافر، قضينا معًا ليلة مليئة بالهواجس والوصايا، مليئة بالحب والدموع، الصمت والكلام ، شعرت ليلتها بالخوف الكبير والضعف والحب الأكبر في عيون أبي أمام دموعي وهو يمسحها بعطف ويتظاهر بالثبات والوقار. تماسكت حتي لا أفضح هدوءه المفتعل وهو يلبسني تمائم وعوده بالعودة قريبًا، ويستسهل الأمر ويستبسط المدة.

سافرت أنت، ثم سافر أبي، وقبلكما سافرت أمي، وحبوبة زهور، فبقيت وحدي رغم آلاف الجموع، ومئات الذين يهرعون لرعايتي وفاءً لأبي.. ولم يمضَ أسبوع حتى زرت أباك، وقبّلت أمك وأطراف بيتكم.

تسكعت الأيام، وتعاظمت الأشواق وتسارع إحساس الوحدة يتملكني.. فصارت الوحدة أنسي، فكنتُ وحيدةً في المدرسة، ووحيدة هناك في بيت المعلمات.. وكذلك عدت وحيدة إلى المريودة لتستقبلني وحيدة هي أيضًا.. فكانت المواجهة.. وحيدة أنا ووحيدة أنت يا مريودة...

دخلت القطية التي كانت تخص حبوبة زهور، قضيت معها بعض الوقت أسلم عليها وأسمع دعواتها، وأتقلب بين أحضانها، وأتلاعب تحت «عنقريبها» العالي شديد الارتفاع عن الأرض، ذلك الذي أصبح رمزًا من رموز المريودة.

ابتسمتُ وأنا أرقد تحت ذلك العنقريب وأوقظها بوخذات من القش، لتصحو مرتعشة تنادي بركات سيدها..... .....

ابتسمت وأنا أسمعها تصرخ بخوفها الطفولي مذعورة، ثم تستطرد صراخها بمداعبتي وهي تقول:

ـ»دي أنتِ يا سرّورة»؟!

ما أقسى أن نبتسم حين تبكينا الذكرى!!

بعدها وقفت في حضرة أمي، لم أستطع أن أفتح الباب وأدخل عليها، فاكتفيت بالجلوس أستجمع الذكرى...

بدأ شريط الذكريات يعبر ذهني ويغريني بالبكاء وأنا من كنت أحتاج الصبر والسلوان!..

جاء خالي!.. هكذا ودون أي استئذان وجدته أمامي.. سلّم عليّ برجولة سئمتها وكرهتها.. فكم كنتُ أحتاج أن أمسح دموع قلبي

على صدره!... كم كنتُ أحتاج إلى عطفه وحنانه... ملعونة تلك الرجولة.

رجالك يا مريودة يحرموننا من كل شيء حتى وإن بكينا نطالبهم بشيء من حنان.. ألا أستحق عطفه وأنا من فقدتُ كل شيء.

كم كان ظالمًا وجبارًا!!

كان همه ألّا يتركني وحدي، فيسأله الناس عن وحدتي وما يمكن أنْ يحدث بعد ذلك..

«هي بت في النهاية... !!!»

هكذا تقولون الجملة الموازية لجملتكم المعتادة «نحنا في النهاية رجال... !!»

ما أقساكم !! وما أظلمكم !!!

لن أترك بيت أمي... بيت أبي... بيت حبوبة زهور... اتركني يا خالي..!

كم كان مصرًا !! وكم كان شديد الإلحاح!

لكني أعرف ما أريد... ولن أقضي إجازتي في مسرح آخر غير

مسرح ذكراكم. . .

علميهم يا مريودة أن لليتيمة حق الحياة حيثما أرادت..!

وقضيت ساعة بعد ذلك الجدل المجحف بيني وبين ذلك الذي يريد أن يسلبني آخر ما تبقى لي منكم... الذكرى..

ساعة كاملة قبل أن تدخل عليّ ابنته... ابنة خالي... دخلت عليّ مبتهجة، مرحبة، فصرخت أنا في وجهها.

لن أترك هذا المكان... اذهبي..

لن أنسى أبدًا رعشتها وخوفها، لقد كادت أن تجري وتتركني لأحزاني ومخاوفي...

عرفت بعد ذلك أنها جاءت تقضي معي إجازتي وتشاركني الألم والنواح. كانت تكبرني بنحو ثلاث سنوات، وكم كنت حزينة لأجلها.. وما زلت!!

قضينا معًا إجازتي، فتعرفتُ عليها لأول مرة رغم علاقة الدم القوية بيننا... فلليل أنواره التي يسلطها على الإنسان عندما يخلو به. أكثرت الكلام كأنها خرجت من سجن الصمت، وأكثرت الغناء وتمادت في الرقص، كأني منحتها حريتها المسلوبة، وأتحت لها فرصة التعرف على

نفسها، فكنا معًا داخل مسرحين مختلفين.

مسرحي أنا... كان مسرح الذكرى والألم.

وأما مسرحها هي... فكان مسرح البكاء والنغم.

ما أجمل صوتها وما أعذبه!! كانت تجيد الغناء بطريقة حسدتها عليها.. كانت خير جليس على خشبة أقسى مسرح، وإن كانت تضيف إلى حزني حزنها الضاحك.

كم كانت قوية! كانت تبكي بالضحك... وبالابتسامات كانت تذرف الدموع.. وأما العويل عندها فقد كان الرقص.

تبدأ الغناء بصوت هادئ، ثم يعلو صوتها فتسحب جسدها من ذلك (التوب) الذي يحتويها.. ويعلو أكثر فتسحب جسدها من ذلك العنقريب الذي تجلس عليه.. وتبدأ الرقص.. فأعرف أنا أنها بدأت العويل وأعلنت البكاء جهرًا فما عاد صدرها يحوي أناتها، وما عاد صمتها يشفي غلها..

حاولتُ كثيرًا أن أقلدها وأمارس لعبتها مع أحزاني.. فشلتُ في كل محاولاتي.. فشلت وأنا راضية كل الرضا فلكل منا لغته وطريقته في التعبير عن أحاسيسه ومكنوناته.

هدأت من رقصها يومًا ولأول مرة منذ معرفتي بقواعد وبلاغة لغتها الخاصة.. تخطئ فصاحتها ويخذلها التعبير.. أو ربما لغتي هي التي أثرت عليها.

لأول مرة نزلت من عينها دمعة... ذُهلتُ أنا! واجتهدت هي في إخفائها، فوقعت على العنقريب.. وكأن رقصها.. كان نوبة من نوبات الصرع الباكي.

وسألت نفسي:

هل أنا حقيقة رأيت دموعها أو أنه إحساسي بقوة لغتها؟؟!!

هل كانت هي حقيقة تبكي؟؟

لا أدري!!!

سكنت فلا حراك سوى أنين!

كان الليل في أوله.. لكني كنتُ متفائلة بتلك الليلة، فلا بد أنها ستفتح دفتر أحزانك يا ابنة خالي..

بدأ الليل يثقل خطواته، وعقلي لا ينشغل بسواها.. وهي تبحر في أنينها وتنسى وجودي فتسرق لغتي وتصدح العويل..

سمعتها فخجلت من أحزاني!

واسيتها فضحكت عليك يا مريودة!

وعزيتها فبكيت عليك يا عمي!

سألتني:

إنتو هناك في المدرسة.. معاكم أولاد ولا كلكم بنات؟؟!!.

ظننت أنها في شراك الحب قد وقعت.. ما أغباني.. لم يكن ذلك همها.. كانت تتمنى لو أنني أجبتها بأن المدرسة هناك أيضًا للأولاد فقط.. كانت تتمنى ذلك حتى لا تشعر أنها ضحية الرغبة الحرام.

فالمدارس هنا في المريودة حرام على البنات!

كانت تدمن الراديو.. وكان خالي يخاف عليها منه.

قالت لي: إنها كلما سمعت في الراديو أن هذه الرسالة من الأخت..... تساءلت وحاصرتها الحيرة: من كتبها لها؟! ومن قرأها لمقدمة البرنامج؟!

قضيت تلك الليلة بعيدة عن أحزاني، أفتح الباب لذاكرة أخرى ستضيف إلى الأحزان أحزانًا أقوى تأثيرًا..

سهرتُ لأول مرة مع ذاكرة أخرى، تعيشها كل إناث المريودة ولم أشاركهن فيها أبدًا. كانت جرحًا جديدًا أخذ الأضواء عن الجروح القديمة إلا جرح عمي.. ذلك الذي بدأ نجمه يسطع من جديد..

هنالك أبطال يصلحون لكل النصوص والأدوار. لا يأخذ منهم التحول من شخصية إلى أخرى كبير جهد أو طويل زمن. هكذا يتجولون بين مسارح الدنيا.. ما

أقدرهم على التمثيل!! ونظل نحن - المشاهدين- رغم أنوفنا، نضحك إذا ضحكوا، ونبكي إذا طلبوا منا ذلك، فهم لا يبكون ولا يعرفون طعم البكاء.

بدأت الصحف تتصالح مع عمي، وإن كانت مصالحة بحذر، وبدأ عمي يتابع خطواته بحذر أكثر حتى استكشف الطريق فجرى بخطى لا تحتاج إلى عصا، وعزف فغنت خلفه فرقته المعهودة.

عاد يهتف وعادت المريودة تهتف معه!

لست مؤمنة يا مريودة، فالمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين.

ما أسعدني بك يا عمي.. وأنت الملك على مملكة لا شعب فيها.. وما أسعدني بك يا مريودة وأنت تخبئين لي درسًا كلما رجعت إليك، لأعرف أنني بغيرك جاهلة، لا أعرف شيئًا ولا أساوي شيئًا، وأعرف

أنني لن أقدر قيمة ما أحمل إلا بدروسك المؤلمة..

لماذا أيتها الأستاذة لا تعطي هذه الدروس لعمي؟

لماذا تخصيني أنا بدروس عمي أحوج ما يكون إليها مني؟! لماذا.. ؟! لماذا.....؟!

وعاد الجرح الجديد -ابنة خالي- يستخدم لغةً أخرى، فظل يقضي أوقاته بين كتبي وأوراقي.. وأعرف أنها لم تكن تفهم منها شيئًا.. لكنها لغة الحوار الصامت مع حب مفقود.

العطلة تكاد أن تنتهي... وأكاد أن أفارق ذاكرتي الجديدة...

ما أبسطها وهي تستجديني أن أصطحبها معي إلى المدرسة الثانوية... لم تكن تدري كم من السنين تحتاج لتصل إليها..

ضحكنا بلغة للبكاء مشتركة، وهي تقول بأنه قد حان وقت الغداء... لم أتعود أن ألبس ساعتي هنا في المريودة... فللمريودة طقوسها في إخبارنا بالزمن... فصوت ديوكها العالي يحمل إعلان الفجر، وصوت طيورها الباكي يعلن قدوم الليل... وما بينهما كثير من المحطات التي تدق فيها ساعتها وتخبرنا بالزمن. ولعل «أبو فاطنة» هو أيضًا أحد عقارب تلك الساعة، يرجع في وقت العصر وقبل الأصيل... اتخذناه أنا وشريكتي موعدًا لغدائنا. فها هو ذا فوق الهضبة

التي تحيط بالمريودة، يتقدمه كلبه، ويثقل حماره الخطى، يرفع عصاه بين كتفيه ويشد وثاقها بساعديه... لا ينهر حماره ولا يوجه كلبه، فكل ما عليه هو أن يحزم متاعه، ويجمع بقايا الكسرة التي حملها لفطوره ويضع سرجه الوثير على ظهر الحمار، ويركب..

الكلب يعرف الطريق، والحمار كذلك يعرف الطريق و»أبو فاطنة» يضع يديه فوق العصا على كتفيه، يقطع الطريق من مزرعته والتي نسميها في المريودة «البلاد» إلى بيته بين محطات ذاكرة خاصة به.. هي ذاكرة المريودة.. فليس لـ «أبو فاطنة» ذاكرة أخرى، أحلامه أن يزرع الأرض ويحصدها، يبكي مع المريودة ويفرح معها، لا يرى لعمي بطولة ولا يكتوي بنار الأسى عليه رغم ما يتبادله الناس أحيانًا عن قصة حب قديمة بين ابنته فاطمة وعمي...

ليتني كنت مثلك يا «أبو فاطنة»!.

أمل وتمنّي لن يتحقق أبدًا، فلكل منا ذاكرته الخاصة، ذاكرة تحمل ما وضع فيها من أشياء، فقد خلق الإنسان بذاكرة خالية، لكنه من تجرّأ ووضع الأشياء!! لذلك فقط عليه تحمل وزر ما وضع فيها !!

وأنا وضعت الأسى والألم !!

تناولنا غداءنا الذي شاركنا «أبو فاطنة» بالإعلان عن موعده

وبتفكيري أنا... ثم شاركنا بشيء آخر !!

«الويكة» فقد اشتريناها منه، فهو يحصد مع محصوله محصولًا آخر لا يزرعه وإنما يزرعه الله وتنبته أرض المريودة.. هو «الويكة».

انتهت العطلة وسافرت إلى (بيت المعلمات) في مدينة القضارف، فلم يعُد أبي ولم يعد منه حتى خطاب..

هل ما كان يخشاه أبوك يا دينق قد حدث؟! لا أدري ولا أريد أن أعرف..

ودعت ابنة خالي ـ كان وداعًا محمومًا بطعم الجرح الملتهب، بكت هي لسفري، ولصداقة جميلة تكوّنت بيننا وبكيت أنا لسفر جرحها معي وبقايا نغم سأفارقه... ودعت خالي فثارت نخوته الكاذبة ورجولته السطحية وحاول أن يمنعني من السفر لخوفه عليّ من الغربة، ووحدتي، تعاملت معه بقسوة شديدة.. ندمتُ عليها بعد ذلك.

استقبلني أبوك بصحبة أمك، عانقتهما أتحسس رائحتك وأنفاسك..

عدتُ وحيدة وسط المعلمات وفي المدرسة، اصطحبتُ مع ذاكرتي، ذاكرةً أخرى، وحملت إلى أحزاني حزنًا أكبر.!

وحيدة بلا أم ولا أب ولا حبيب !!... الكل تعامل معي كيتيمة.. وكنت أرفض ذلك الإحساس وتلك الشفقة وذلك العطف.

قضيت بعض الأيام في بيتكم، واتخذت من غرفتك موعدًا للقائك في الأحلام، عرفت أنك قد قضيت إجازتك القصيرة هنا.. ما زال حرّ أنفاسك يزيد دفء المكان.

عاتبتك.. لماذا لم تحاول لقائي؟؟ ثم رجعت وعاتبت نفسي.. كيف تلقاني وأنا هناك في المريودة؟؟!!

هل ستزورني.. ؟!

ستنقلب الدنيا ويختل نظامها.. وما كان يخشاه أبي، لن أفعله أنا في غيابه ولن أترك لسانًا ينطق عني حرفًا.. هكذا تعلمتُ منك.

هل سأزورك أنا..؟!

ما كان يمكنني أن أسافر بحجة غير المدرسة..

تحولتُ بعد ذلك إلى بيت المعلمات هروبًا من آلامي ومن أبيك.. فقد كان يزعجني بحنانه وعطفه المتطرف.. لعله كان يحس فقد أبي أكثر مني.

سأمتحن الشهادة الثانوية.. وسألحق بك في الجامعة.. كان حلمًا

بيني وبينه عام من الألم والوحدة وبدا لي الأمر سهلًا في أوله وأنا أسكن مع المعلمات لكني سرعان ما انشغلتُ عنهن وانشغلنْ هن عني بأشياء أخرى.

كم كنت أسخر منهن، بل وأحتقرهن أحيانًا.. لا يكدن يتخلصن من شرقيتهن التي خلصْتَنِي منها.. جميعهن يقضين معظم أوقاتهن في العناية بتضاريس أجسادهن ومقارنتها السرية بصاحباتهن.

ما أسخفهن.. وما أسخف تلك المعلمة ذات الصدر العالي الذي تتفاخر به دائمًا، كم مرة رأيتها وهي تتعلل بأسباب واهية حتى تكشف صدرها العالي وتقضي معظم الوقت عارية تقتلع أنظار صاحباتها.. وويحها من تتجاهلها.. تناديها وتدعي أنها تحس زيادة في ضربات قلبها، فتجبر من رفضت النظر من بعيد.. تجبر على النظر من قريب، بل والملامسة أيضًا.

هكذا يتبادلن الأدوار، كل واحدة تتباهى بما عندها وتحصي عدد الرجال الذين سقطوا شهداء غرامها، بل وأحايين كثيرة تتجنّى كل واحدة منهن على زميل لها وتدعي عدم رغبتها الرضوخ لحبه وترجّيه..

أحست بالخجل إحداهن مرة.. لا أدري أكان منيّ أم من نفسها.. وهي تحكي عن أنثى قابلتها مصادفة، تحكي بإحساس وتعابير الرجل

المشتهي، لم تنتبه لوجودي، ولم أنتبه أنا لكلامها، انسحبت عن الكلام وهي توسوس لأخرى وما كنت أحتاج إلى ذكاء أو فطنة حتى أعرف أنها قد انتبهت لوجودي.. قلت في نفسي:

ـ ليتكم جميعًا تنتبهون لوجودي.. ؟!

ثم تراجعت وقلت معتذرة:

ـ بل ليتني أنا لا أنتبه لوجودكم..!

جعلتُ من امتحاني سببًا لتصبّري ومعينًا على وحدتي.. وصار أبوك الرجل الوحيد الذي أقابله ويحتويني ـ يعتذر عن سفر أبي ـ وصارت أمك أمي، وغرفتك غرفتي.. فأصبحت نهاية كل أسبوع عيدًا للذكرى، أخلع نفسي من بيت المعلمات وآتي لأستخدم غرفتك وذاكرتك..

عمي...

لا أظن أنه يذكرني أو حتى يذكر ملامح وجهي.. إنه مشغول بأمور أخرى.. يجتهد من أجل أن يعود كما كان.. رجل الصحف والإعلام.. لا يأبه بأي ثمن يمكن أن يدفعه مقابل ذلك..

خالي..

لا يحب المدينة.. وهو سبب كافٍ بالنسبة له حتى لا يسأل عني..

ويبدو أن القدر رفض أن يتدخل ويرسم لنا لقاءً بعد أن فشلنا نحن في ذلك... تفتح المدرسة.. فأجدك قد سافرت إلى الجامعة -الخرطوم- وأعود إلى المريودة فتعود أنت إلى غرفتك... وآتي إلى هنا مرة أخرى فلا ألقاك وتكون قد سافرت!.

كاد العام أن ينقضي، وأنت لا تزال بعيدًا عني لم نلتقِ منذ ذلك الوداع..

سأمتحن بدونك... وسأنجح لألقاك هناك.. ما زلت لا أسمع غير أبيك، ولا أسمع منه سوى..

ـ ما منو خبر والله..!

يقولها بأسف يخيفني.. لماذا لم تُرسل إلينا؟.. فنحن لا نعرف كيف وأين يمكننا أن نرسل إليك.. لماذا لا تعود إلينا؟.. وتترك التحدي.. لا أريد أن أفقدك كما فقدتُ أمي.. ألا تحس بوحدتي.. ألم تترك لي مكانًا في قلبك وتفكيرك.. عُد لأجلي أنا.. من أجل ابنتك سارة..

لا أريدك أن تموت يا أبي!

هكذا فقدت صبري وتحملي.. وبكيتُ أمام أبيك..لا أستطيع

الامتحان وحدي..

كاد أبوك أن يشاركني البكاء، لكنه تعالى على ذلك أمامي، فصرخ يعاتب أبي على سفره ويذكر تحذيره له واعتراضه على السفر.

وافترقنا....

وأقسم أنه بكى بعد ذلك، وإلا فما هذه الدموع التي استخدمها حبرًا يكتب بها رسالة على لسان أبي.. تلك الرسالة التي ما زلتُ أحتفظ بها، وألبسها تميمة تحفظ ذاكرتي وتصونها...

حروف كتبها أبوك بلسان أبي !!

هكذا أحب أن أسميها، فلم يترك لي أبي حروفًا أحفظها عنه.. بكيتُ لأبيك أطلب رسالة من أبي، فبكى وكتبها نيابة عنه، ونسى أنني أعرف خط أبي وطريقته في الكلام... نسي كل ذلك، ونسيت أنا معه ورضيت بالرسالة أخدع نفسي.. لن أنسي أبدًا يوم أن جاءني يحمل الظرف ويدّعي البشارة والفرح الذي يشوبه القلق والخوف من عدم تصديقي لتلك الأكذوبة.. ما كان يدري أنني كدت أن أفعل ما فعل، وأخدع نفسي بنفسي..

قابلت الفرح بفرح أكبر وسعادة أعظم لكني قبل أن أكمل قراءة سطر واحد منها تبيّنت الأمر فكاد الفرح أن يختفي ويحل محله إحساس

آخر.

هل مات أبي..؟!.

ثوانٍ من القلق والتساؤل ثم بدأت أظهر الفرح الزائف فتحول أبوك إلى فرح حقيقي...

أهداني نارًا..

يحسبها حلوى..

يرقبني كيف أصارع في الآلام..

أخبّئ طعم النار

وأظهر طعم الشهد...

ثم مضى أبوك سعيدًا، فاستبدلت أنا طعم الشهد بطعم النار، وأنا أردد كلمات الرسالة وأعيد قراءتها. لم يراودني شك في أنه -أبوك- من كتب تلك الرسالة. لكن لماذا..؟!

ألم يستطع أن يصمد أمام بكائي..؟!

أم أنه يئس من أن يُرسل أبي خطابًا...؟!

وإذا فقد الأمل في ذلك.. فلماذا..؟!

خوفُ.. وحيرة وتساؤلات وإجابات باكية.. تضعني أمام حقيقة واحدة هي أنني... سأمتحن وحدي وأحقق رغبتك في دخول الجامعة يا أبي... سأمتحن وحدي لألحق بك هناك يا دينق!.

تشابكت خطوطكما وتوحدت رغباتكما.. غريبة علاقتكما بي وغريبة علاقتي بكما!

امتحنت الشهادة فكنتما حضورًا داخل قاعات الامتحانات.. كتبت اسمي على ورقة اللغة العربية فأخذ أبي القلم وأجاب عني.. وفتحتُ ورقة اللغة الإنجليزية ـ فكتبت عليها اسمي ثم أجبت عليها أنت!.

انتهت الامتحانات ولا تزال الحياة تمضي بطعم الحرب وقرنق، ولا يزال الوطن يقطع من جلده بدعوى مصاريفها، وإن كان عمي وأمثاله تكبر بطونهم وتنعم جلودهم وتغطي عيونهم أغشية السكر وأرصدة البنوك بذات الدعوى وذات الحرب.

انتهت الامتحانات وعدتُ إلى المريودة!

سلمتُ على حبوبة زهور وأمي واستسمحتُ غضب بيتنا ثم أسرعت الخطى إلى بيت خالي.. علاقة جديدة بدأت تربطني بذلك البيت.. لم أسأل عن خالي وإنما عن ابنته ـ ذلك الجرح الذي لا يزال

ملتهبًا..

تشاركنا الحزن من جديد.. «أبو فاطنة» يعلن ميعاد الغداء ـ الديوك توقظنا في الصباح ـ والصمت الذي يعتري المريودة يُعلمنا بوقت القيلولة.. الليل يكشف أحزاننا.. والهضبة تحجب أنظارنا وتشدنا لمراقبتها هي فقط.

عمي لم يزر المريودة كعادته بعد أن بدأ طريق المجد من جديد.. وأخذ الهدوء يأخذ طابع تلك الإجازة وبدأت أتأثر بلغة شريكتي، وتتأثر هي بلغتي، كدنا أن نتعامل مع أحزاننا بلغة واحدة ـ لغة بين الرقص والدموع، لغة بين الغناء والبكاء.

تعلمت عددًا من الأغاني الحزينة، وأخرى من الغربية التي تردد في المريودة، وتمرّن صوتي على الغناء والنواح، فكتبت في تلك الفترة عددًا من القصائد والأشعار التي ما زلت أواسي بها نفسي...

ما بين زفيري وشهيقي
زفرة حزن وشقاء!
تتكتم، تخنقني..
تتنفس شعري بعد عناء!
ما بين مسائي وصباحي

ما بين غدوّي ورواحي
أنات، تعشقني
إن بعدت عني أبكيها
فحياتي..
إما معها
أو ذكراها!!

تعلمت البكاء بالأشعار وصار نظمي يمتلك قوة الكلمات وسحر الشاعرية فأصبحت شاعرة منسية.. حرام عليها كل اللغات وحرام عليها الحب وكل ما يشير إليه.. لذلك تعلمتُ أن أكتب بصيغة المذكر وأخاطبك كأنك الأنثى.. أو لعلى كنتُ أفترض أنك من كنت تكتب لتخاطبني، فأنا أحتاج صوتك ومناداتك لي..

ذات يوم كتبت على لسانك:
قالوا «نسيتك»
قلت أنسانيك تذكري
وتوهمي دومًا
جوارك بين أحضان السماء
قالوا «نسيتك»
قلت: صدقًا

إنني حقًّا نسيتك
بين أشلائي وأوعية الدماء
وبقيتُ أسأل:
لو أنا ناديت باسمك صارخًا
أيجيبيءُ صوتك ماردًا
أم عنك تجيب كريات الدماء
إني نسيتك في دمي
فلتُعلمي كل النساء.
ولتسكتي كل النساء!

حدثتها عنك وعن أشواقي إليك، ولم أجرؤ أن أذكر حرفًا من حروف اسمك »إبراهيم« وبالضرورة فإنني لا أستطيع أن أفكر حتي في نطق «دينق»، حدثتها عن لقاءاتنا، عن قبلاتنا، عن كل شيء، لكني اختصرت لها ذلك كله وأفهمتها أنها كانت فقط عن طريق العيون... فخيالات نساء المريودة تعجز أن تتخيل لحظة همس أو بوح بين رجل وامرأة. كذبت عليها كثيرًا وأنا أقول الصدق والحقيقة وأنا أحكي لها عنك وأدّعي أن ما كان بيننا، حدث فقط في الأحلام والتمنّي، وكنت أختم كل قصة عناق أو قبلة بـ«وفجأة دخل علينا أبي وصحوت من نومي مفزوعة» أو ربما بـ«وبعد عناقنا ارتطمت بالأرض وصحوت من نومي » وكنت عندما أنسي تلك اللازمة الكلامية، كانت تذكرني بها غامزة وفي وجهها نصف ابتسامة، كأنها كانت تشعر بطعم مختلف في كلامي وتعرف أنها لم تكن أحلامًا وإنما حقائق منعنا بعض حياء وبقايا حواجز بيننا أن نعبّر عن أفعالنا ومشاعرنا بحرية أكثر.

سألتني وهي تحدق في اللاشيء وتراقبني:

ـ وما حصل..... ....معاك؟؟!!!

ثم استدركت وغيرت طريقة سؤالها وسبقته بلازمة كلامية اتفقنا عليها مسبقًا واستسمحنا بها بعضنا ومنعنا بها اللوم ـ أقصد.. ألم تحلمي أنه..... ....؟!- كانت تسأل عن حدوث جنس كامل بيننا، ثم أضافت سؤالًا آخر:

ـ وهو بيدور يعرسك ولا ريده ساي يا أختي....

حدقت أنا في اللاشيء هذه المرة، واعتدلتُ في جلستي وتنفس قلبي ذلك الحب الكبير فارتسمت تعابيره على وجهي. آآه كيف أحكي لها كم كنت تحبني، كم كنت تعشقني، وكيف أنني دعوتك إلى جسدي، وكيف اكتفيت أنت بقلبي وروحي، وكيف أنك رجل، صنعت مني أنا امرأة. واسترسلت في الحديث وابتسامة كاملة على وجهي وأكثرتُ الكلام والثرثرة وابنة خالي تسبح في البعيد، لا تنتبه لوجودي ولا جوابي على سؤالها، قالت والغصة تشرح حروفها:

ـ مش زي ود المهل.....!!.

واصلت سكوتي أدعوها أن تبوح بما تريد وتروّح عن نفسها فأنا أعرف ود المهل ودكانه في المريودة وأذكر عدد المرات التي أبدي حماسه لتقديم المساعدة وحتي بعض كلمات الغزل والمزاح، كنت أظنه صاحب نكتة وخفيف ظل، يتبادل المداعبات مع الكل. غصتها لا

تتماشي مع فكرتي السابقة عنه، ثم حكت لي كيف أنه يلاحقها ويطلب جسدها وكيف هي تحبه، كيف هو يحدثها عن أنها لا تثق فيه كثيرًا وهو من يكاد يروي ظمأ معظم عيون وشفاه وأجساد بنات المريودة المراهقات منهن وحتي المتزوجات دون أن يفشي سر إحداهن كما كان يدّعي ويتفاخر بذلك. حدثتني كيف أنها كانت تتألم وهو يخبرها أنه يحبها وأنها الوحيدة التي رفضته ورفضت حتي أن يمس يدها وهذا لا يدل على حبها كما كان يحاول أن يقنعها. ثم أسكتتني بآخر الكلمات وغادرت المكان، أخبرتني أنه تقدم لخطبتها من أبيها وهي حائرة الجواب، خائفة، متوجسة. تركتني والحيرة تملكتني أنا أيضًا، ربما هي غادرت حتي لا أربكها أنا برأيي فهي تحبه ولكنها تخشي العيش معه وتخشي المستقبل. هل يا تري ستوفق للقرار الصحيح؟ وما هو الصحيح؟ هل تعيش مع حبيبها رغم كل شيء؟ أو ترفضه وهي تحبه؟!. وتمر أيام إجازتي ببطء وبوح متبادل وغناء مشترك وتباريح صارت مشتركة أيضًا...وغنّينا وقرأت عليها بعضًا من أشعاري، و ما كان على أن أسعد بتعلمي العزف على أوتار جديدة للبكاء والحزن فالشعر يبكي كثيرًا، والشوق يستنفر الكلمات.. كان علىّ أن أعلم أنني لا يجب أن أفرح أبدًا حتى وإن كان الفرح نفسه يأخذ شكل الأحزان...

هدوء وتغني وبكاء!

دموع ورقص وعويل!

والحزن الأكبر قادم... والخطب الأعظم في طريقه إلى المريودة.. الرقص سيحلو والهدوء سيصرخ!

وكان الحريق.. ومات أبي

فقيل شهيد!!

جاءوا إلى المريودة يحملون البشارة، سبقهم إلينا أبوك!.. أخبرني فلم أدرِ ما قال ولم أسمع بعد ذلك شيئًا.. غسلني بدموعه فجرفته أنا ببحر دموعي!

أناتٌ تعشقني!!

هدوء المريودة غدر بي.. ورقصك يا ابنة خالي حذرني، لكني لم أنتبه للعواصف القادمة فأقيم لها الدروع.

أخبرني فلم أره ولم أرَ نفسي بعدها إلا وأنا بين أحضان ابنة خالي وأمك.. اجتمعتا يكونان من أحضانهما حضنًا يحتوياني به.. ما كانت إحداهن تقدر على حملي وحدها أو تستطيع أن تحمل ما كنتُ أحمل في صدري..

وضجت المريودة.. وعلا صوت نحيبها، تسابقت نساؤها كالنحل

إلينا.. وكان أبوك يستقبل بكاء رجالها.. فلم يأتِ عمي بعد!! ساعات من الضجيج والنواح ـ أهل المريودة يحترفون نوعًا آخر من أنواع الفنون...

إنهم يضحكون بالبكاء.. !

ما أجمل المتناقضات عندما تجتمع في بيت واحد !!

مئات النساء النائحات بلا دموع!!!

وأنا ما زلت أحتجز نفسي بين أحضان من بكوا معي وليس مع بكاء المريودة.. لم أستوعب بعد مدلول الخبر..!

سكت البكاء!.. بدأت أصحو...!

وعلا صوت آخر.. صوت الأفراح..

علا صوت الزغاريد...

الزغرودة الأولى.. ذات الصوت العالي جدًا.. ما زلت أسمعها داوية في أذني.. حولتني من حزني العميق إلى فرح أعمق...

لا بد أن الخبر قد تبدل وتغير مدلوله.. فلم يمت أبي... لا بد أنه عاد إلى المريودة... إنني أسمع أصوات السيارات القادمات..

تجمع كل ذلك في صدري ورأسي وأنا أقتلع نفسي من أحضان شريكتي، أصرخ خارجة من سجني..

رأيت الحضور وما فعلوه بأنفسهم... بعضهن عارٍ.. وبعضهن يلبس أثوابًا ملطخة بالرماد والتراب... بعضهن باكٍ، وبعضهن ضاحك لا يتوقع خروجي المفاجئ.

خرجت وما زالت الزغاريد تعلو...

فرح قلبي!

خرجت وما زالت النساء تنوح..

تاه فكري!

تثاقلت خطاي بعد خفتها وكدت أرجع حيث أنا أكتفي بالشك وأرفض اليقين.. صرت أخشى المجهول... ولا أتوقع منه خيرًا..

توجهت رغم ترددي حيث الزغاريد والسيارات القادمات.. رأيت عمي.. تراجعت قليلًا.. اصطدمت بشريكتيّ فقد كانتا تسيران خلفي... كونتُ أنا هذه المرة من حضني حضنًا أحتويهما به وأحكم القبض عليهما بيديّ.

تمنيت الجنون ساعتها، لكنه رفض أن يخلصني من ضغط الأسلاك

العالية في صدري ورأسي... تمنيت لو كنت من الصم.. لكن أذني تآمرت على هي الأخرى وصارت تلتقط دبيب النمل وهمس النائحات.

تقدم عمي نحوي.. كان مبتسمًا.. بخل على عينيه بالدموع.. إلا بمقدار ما يتكور عليها ولا يتدلى.. يحمل عصا ذات مقبض فاخر.. يلوّح بها.. يكبّر ويهلل..

أراد أن يضمني إليه، وتمنيت لو أن الحراك لم يسلب من يديّ حتى أمنعه...

ربما كنت أستطيع أن أمنعه لولا تلك الأفعى التي هيأت له ذلك المخدر حتى لا أفضحه أمام حاشيته وأمامك يا مريودة.

صاحت الأفعى:

زغردي يا بت الشهيد...

استسلمت له فاحتواني.. كنت أول مرة أقترب فيها منه ولا يفصل بيننا شيء سوى ذلك العطر الزاهي الذي ينتشر عبر عباءته، عمامته بل حتى عصاه التي لم نرَ مثلها من قبل..

مات أبي... ومات عمي...

استقبلت المريودة حياة أبي، فالشهيد عندهم لا يموت وهم قالوا بأنه شهيد! واستقبلت أنا موت أبي، وموت عمي!

وتحول بكاء المريودة إلى أفراح! ما أقرب المسافة بين ضحكهم ودموعهم!

ميت يستقبل العزاء في ميت آخر! بل ما أغرب أن نُقيم للأموات عرسًا! يقولون إن أبي لم يمت، وإنما استشهد هناك ساعة الحريق... ماذا لو لم يكن الحريق ولم تكن المدرسة هناك في الجنوب؟!

أكنتم ستسمونه شهيدًا وتحتفلون بموته؟!

لأول مرة أمتلك الإجابة على أسئلتي!!

فأبي لم يذهب ليستشهد... أبي ذهب تحديًا لهؤلاء المحتفلين بموته...

لقد كسب أبي التحدي... وإلا فلماذا يحتفلون بموته...

لقد كان خصمًا قويًا!!

«تنحنح» عمي، فأنزلوا ما كانت تحمل العربات من متاع الدنيا حتى يقيموا وليمة عرسهم... فهم أناس يلتزمون بتوجيهات الرسول «صلى الله عليه وسلم» ولا يخالفونها

«أولموا ولو بشاة»

ولأنهم لا يعرفون الشاة، ظنوا أن أبي هو الشاة، فأولموا به.. وفرحوا لموته..

سكر.. دقيق.. ذبائح.. فرح.. زغاريد!

ما أسعدك يا أبي وخصمك يحتفل كل هذا الاحتفال لموتك، ماذا كنت تفعل؟! فهم لا يحتفلون إلا بأنصارهم.. كيف جعلتهم يحتفلون بخصومهم..

ما أقواك من خصم يا أبي..!

«عرس الشهيد» جرح جديد يأخذ الأضواء عن جرح ابنة خالي ويحجز لنفسه مقعدًا وثيرًا بين مقاعد الأحزان والذكرى..!!

بدعة لا أظن أن خيال الكتاب مجتمعين قادر على ابتداعها... كيف استطعتم أن تجبروا المريودة أن تقيم عرسها في يوم مأتمها.. كيف..؟!

ظننتُ أن هذه الأدوار وهذا النص صعب عليكم.. لكنكم أثبتم جدارة في التمثيل وقدرة على الإقناع..

عمي! صدقني لم تختر المكان المناسب لإبداعاتك الفنية والتمثيلية.. بطلٌ مثلك حرام أن تخسره شاشات السينما والأفلام الروائية!

كيف تقيمون عرسًا لأبي في بيت عرسه الأول ـ بيت أمي؟!

ابنوا له بيتًا آخر وزوجوه من تشاءون!

احفظوا ذكرى أمي ولا تجرحوها في قبرها!

أين مأذونكم؟! وأين وكيل العروس؟!

بل أين هي العروس نفسها؟!

يقولون إنها من الحور العين.. فمن منكم رآها.. ومن منكم أخذ موافقتها.. أليست بكرًا؟!.. لا بد أن يسألها المأذون بنفسه؟.. هل سألها؟!

ولمن ستعطون العقد؟! لأبي أم للعروس؟.

كلاهما ليس بيننا..

كلاهما عند ربي يفعل بهما ما يشاء!

دعني يا عمي أصدق حبوبة زهور عندما قالت إن بركة سيدي..... .... إذا نزعت من أحدنا سخط عليه الله وسخط عليه الناس بعد ذلك.. أنا لا أدعي مثلكم أنني أعرف علاقة الله بكم أو علاقتكم أنتم بالله! لكني فقط أصدق خرافات حبوبة زهور.

فقط أصدق حبوبة زهور!!

كرهك الناس وإن كانوا يصفقون أمامك ويهتفون معك.. تبرأت منك المريودة وإن كانت لا تزال تنادي باسمك.. ونسيتك أنا وعددتك مع الأموات وإن كنتُ ما أزال أعيش معك في بيت واحد.. هو بيتك.. أو بيت الحكومة.. أو ربما بيت أبي.. لا أدري..!

ما بين دموعي الدامية وعطرك الزاهي عصور ودهور مختلفة، فنحن لن نلتقي.. لن نلتقي أبدًا.. زماني غير زمانك، حتى اسم جدي لا أظن أنه هو ذاته اسم أبيك.. أقوله أنا فأفتخر به، وأسمعه مقترنًا باسمك فيهتز أمامي ويتناقص قدره عندي..

لا أطيق القرب منك رغم عطرك الزاهي..

متى تعلمت الجلباب والعباءة؟.. كنت أعرفك فقط بالزي الإفرنجي الذي تترفع به علينا وتجبرنا أن نرى فيه شهادتك الكبيرة ونسلّم بعدم معرفتنا بالشهادات ولا طريقها..

زوجوا أبي وهو بين الأموات.. وزوجوني معه الوحدة الأبدية.. لم يبق لي غيرك يا دينق!

ابنة خالي.. أبوك.. أمك كانوا كل الشهود على حزني وفجيعتي.. ضج البيت بالنساء والرجال ولم يشاركني الحزن غيرهم.

بكى أبوك ولم يبكِ عمي!

كان يتحدث عن تقديم أسرته لشهيد فداء المبادئ والثورة.. بُحّ صوتي فلم أمنعه الكلام ولم أتكلم أنا..

لم يكن أبي فداءً لأحد غيري..

لم يكن أبي يبارك الثورة حتى يقدم روحه فداءً لها.. لقد قدمته الثورة فداءًا لعمي، وسلّمًا يصعد به إلى درجات أعلى ومناصب أرفع..

لقد كان أبي الثمن وقربان الولاء الذي قدمه عمي، ليثبت ولاءه ويمحو فترة سطوع نجمه مع الذين ثارت عليهم الثورة.. وأبعدتهم عن السماء لتسطع شمسها هي..!

وتحلّق الناس في صيوان الفرح الباكي بعد أن أكلوا الذبائح وشربوا ما وجدوا من شراب، وباركوا لأبي عروسه في الخيال وفوق السماء، ولم أكن أدري رد أبي عليهم..!

صلوا العصر جماعة في الصيوان وإن كان المسجد على بعد أمتار.. ويبدو أنه لا يتناسب مع أناقة الحضور..!

صلّوا فأطالوا السجود، وأطالوا الدعاء.. ثم حوقل عمي وحسبل واسترجع وبدأ خطبته العصماء.. رصانة وفصاحة وإجادة!

ما أروع تحكمه في نبرات صوته ودرجاته، يذكر بالآخرة ويدعو إلى بيع الدنيا ويضرب بأبي المثل في التضحية والدفاع عن المبادئ والقضية.. تلك القضية التي لم تستطع كل هذه الأعوام أن تفسرها لي.. ضرب المثل بأبي فطلب من أهل المريودة نماذج أخريات.. ضحكتُ حين سمعته.. أقسم أنني ضحكتُ ساعتها رغم دموعي ودون أن أدري وجدت نفسي أردد شيئًا من الكلام الذي لا أدري كنهه، أكان شعرًا أم نثرًا أم أنه أحد الأناشيد التي حفظتها في المدرسة الابتدائية عن أستاذ عبد الرحمن ولا أعرف إلى يومنا هذا هل كان موجودًا في المقرر أم لا.. وأحسب أنه كان موجودًا وتم حذفه، فلم يعد يتناسب مع العصر، أو أنه أصبح يمس بعضهم.

كانت الكلمات تقول:

برز الثعلب يومًا في ثياب الواعظينا
ومشى في الأرض يهدي ويسب الماكرينا
ويقول الحمد لله.. إله العالمينا
يا عباد الله توبوا.. فهو كهف التائبينا
واتركوا الديك يؤذن لصلاة الصبح فينا
فأجاب...
وسألت نفسي..

لماذا طلب الديك بالذات.. ؟

كانت الإجابة واضحة.. الثعلب يريد الديك كوليمة عشاء وهو ما دعاه لأن يرتدي ثوب الواعظين....

وهكذا كان عمي يطالب المريودة بديوك أخرى، تلقى مصير الديك الأول ـ أبي ـ..

لا بد أنه سيستفيد كثيرًا لو صدقته المريودة وتبرعت له بعدد من ديوكها..

لكن كيف، كانت إجابة المريودة..

فأجاب الديك عذرًا يا أضل المهتدينا

بلغ الثعلب عني.. عن جدودي العارفينا

من ذوي التيجان ممن دخل البطن اللعينا

رجع عمي خائبًا لم يفز إلا بديك واحد ـ هو أخوه ـ وبكتكوت آخر صغير كسير الجناح ـ هي أنا ـ.

اصطحبني إلى الخرطوم دليلًا على تقديمه قربان الولاء.. ولو مات أبي في مدرسة أخرى أو كان الحريق في مكان آخر لما ذكره أحد ولما

اصطحبني عمي.

كنت أعرف حقيقة اهتمام عمي المفاجئ بي وكنتُ راضية بذلك كل الرضا.. وقانعة بذلك كل القناعة، فلم يعد لي أحد غيره وأنا من تريد أن تلتحق بالجامعة حتى تلقاك يا دينق وتحقق رغبة أبيها..

خالي يكره المدن!!!

* * *

وانتقلت إلى مرحلة جديدة من حياتي ولا تزال أصداء الأحداث تتصادم بأذني.. مدرسة المريودة ذات الجدران التي تتكون من القصب والحطب والقش، صارت مدرسة الشهيد!

عمي.. صار أخا الشهيد.. كل شيء أصبح ينسب إلى الشهيد المحكوم عليه بالشهادة قسرًا ـ أبي ـ.

حتى المريودة كادت أن تصبح قرية الشهيد ويطمس اسمها ويتلاشى..

رحلة طويلة، ما بين المريودة والخرطوم، ما بيني وبين عمي، ما بيني وبين روز!

ارتضيت السفر وتقبلت عناءه وحزمت الزاد وبدأت الرحلة..

رحلت وكان زادي
حبرُ أقلامٍ تبعثر
يجني على ورقي
فيدمي لحنُه كبد الغريق
رحلت وكان عمري..
بضعة أعوامٍ
لست أعلمها..
فبعض سنينها دهرٌ
وبعض شهورها عمرٌ
فكل دقيقة منها
أكاد أحسبها
تأتي لتصفعني
* * * * * * * * *
لست أدري...
هل أنا من يعشق الأوهام
متقد الخواطر
مقلتي.. تجتاحها ريب الظنون
ومقودي.. رضع الشرود
وقادني نحو التهالك بعض شعري

لست أدري.. !
هل عيون الناس
أسبلت الدموع تمكنًا
من ناصية الخداع
وقهقهت بعد الأسى فرحًا
هل قلوب الناس أظهرت الأنين تجملا
بضباب أحزان
تعتم لونها أسفًا بفكري
لست أدري...!

وما زلت لا أدري شيئًا ولا أعرف شيئًا، أصبحت لي غرفة خاصة في بيت عمي، وحياة ظاهرها الهناء في بيت عمي وباطنها العذاب والسهاد...

روز ـ ابنة عميـ حاولت الاهتمام بي، لكنها سرعان ما انشغلت عني وتركتني لهمومي، وأراحتني من أسئلتها وصغر عقلها وضيق أفقها...

كنت فقط أفكر في اللقاء الذي حلّ موعده وذلك العناق الذي آن أوانه... ماذا سأقول لك عندما نلتقي؟ ماذا سيحدث بيننا؟.. هل ستعانقني أو سأعانقك أنا؟..... هل ستقبلني أو سأقبلك أنا؟..

وكنت أحدث نفسي بلقائك وأقول:

عندما نلتقي
سأحدثك عن شوقي
عندما نلتقي
سأبكي!!.
ثم قلت على لسانك:
وسأحلم أني ألقاها
في العام الثاني بعد الموت
أهديها شعر الحب، بقايا الصمت
وأرسم في حلمي ردة فعل غجرية
تحضنني
تتسارع أنفاسي
أحضنها
تتلعثم.. تتهشم
يجرفها إحساسي
تهديني خديها
لا أقبل
تهديني شفتيها
لا أقبل

تهديني نهديها
لا أقبل
وأتيه بعينيها
سبعين خريفًا في نار الحب
وأشهد أني قد آمنت بنار الحب
وأن العين رسول الحب
وأعرف كيف أموت لأحيا الحب!!!!.
ثم قلت لك:
مر طعم القهوة
وذكراك..
كطعم القهوة!!!.

والتقينا
بعد البعد فاحتجب الكلام
فاقتربنا نشتري بدموعنا حرف الغرام
واقتربنا.... واقتربنا
نستقي من ريقنا بعض الرحيق..!

التقينا من جديد.. وتعانقنا من جديد.. ! كيف أحدثك عن ذلك اللقاء؟ وماذا يمكنني أن أقول؟ لا أكاد أجد كلمات تحمل أوصافه... لن أحدثك عنه!! سيظل يتملك إحساسي، فأدرك أن الصمت أبلغ من كل حديث!!!

ما أجمل ذلك اللقاء! هناك في الجامعة ـ جامعة الخرطوم ـ كلية الآداب، لا أظن أنني كنت سألتحق بجامعة أخرى أو كلية أخرى غير التي تدرس فيها أنت!

كان لقاء كذلك الذي حدث بيننا في مدرستكم ـ أتذكره ـ نظرات زملائك الغاضبة، ولهفتي التي لا تعرف الحذر.. سحبنا أنفسنا عن أنظار المراقبين، وتحدثنا باللغة التي أجيدها أنا، والتي كنت تتمنى أن

تتعلمها، لكنك دائمًا كنت التلميذ، وكنت أنا الأستاذة..!

ثم بدأنا لغة الكلام التي يشاركنا الكثيرون التعامل بها.. حدثتك عن أحزاني وحدثتني عن أشواقك وأخبارك..

قلت بأسف..

ـ سافر أبي والْتحق بالمعارضة..

قلت لك وأنا أعقد مقارنة غير متكافئة..

ـ سافر أبي والْتحق بالتراب..!

لم أسمعك قولي ولم أترك لساني يجهر بالقول

قلت لي بعدها..

ـ لن أرى أبي إلا بعد سنة كاملة، بعد إكمال الكلية..

قلت أنا:

ـ لن أرى أبي أبدًا.. أو ربما لحقت به قريبًا..

بشرتني:

ـ سنتقابل كثيرًا طيلة هذه السنة..

صرخت في وجهك وأنا أقول:

ـ وبعد هذه السنة؟!

انخفض صوتك كأنك مثلي لا تريد الوصول إلى نهاية السنة، واكتفيت بالتفكير بلقاءاتنا وتركت أمر الفراق للأيام، لذلك قلت في أسف شديد:

سألتحق بالمعارضة، هكذا قدري، إن مكاني في الجيش جاهز ينتظرني، فأبي ناشط جدًا، كان يعمل هنا من الداخل ولكن بعد أن مات أبوك يا سارة ثار وأعلن الحرب بالسلاح، إنه الآن يصلّي ويطلب النصر أو الجنة..

قاطعتك دون أن أدري سببًا لسؤالي..

ـ وأين أمك ؟!

قلت:

ـ لحقت به بعد شهر من سفره..

قلت في نفسي:

ـ وبعد سنة سوف تلحق بهما أنت!

بكيت وأبكيتني وأنت تقول وكأنك كنت تسترق السمع إلى دواخلي..!

ولربما لحقت بهما قبل ذلك.. لقد قال أبي إنه سيرسل لي مباشرة، إذا وجد فرصة في جامعة أخرى أكمل فيها بقية دراستي.. ثم واصلت وأنت تهزأ من الأقدار

ـ الحمد لله أنه لم ينتزعني من الكلية إلى الجيش.. سأطبق كل ما تعلمته هنا، سأطبقه في الجيش وقوانينه وخططه القتالية.. وضحكت بصوت باكٍ وأنت تقول:

ـ إنه لدافع كبير لإكمال دراستي بل والتفوق كذلك.. أليس هذا صحيحًا؟!

ونظرت إليّ نظرة يائسة، ونظرت أنا إليك نظرة لا أعرفها... وسكتنا.. ! فما عاد الكلام مجديًا ومرت الدقائق زاحفةً كسلحفاء عجوز.

ادّعيت الثبات وقلت لي..

ـ سأعود يا سارة.. سأعود..

ما كنت لأرفض منك وعدًا بالرجوع، كم من السنين ستقضي

هناك؟! ستمر كالدهر.. لكننا سنلتقي.. ؟!! هذا الأمل يكفيني.. ربما لأنك الوحيد الذي أعطاني الأمل بالرجوع ووعدني بالعودة.. جميعهم سافر ولم يترك لي عنوانًا..

شكرت لك الأمل واعتذرت لهم جميعًا،.. ربما لأن عناوينهم مشتركة ـ التراب ـ !!!

وعدتني.. ولم تفِ بوعدك... حسبت أنني سأنتظر سنين وما كنت أظنه أبديًّا وأن الوعد سيكون حكمًا بالإعدام مع الشغل والنفاذ...

وهكذا أصبح كل لقاء بيننا يحمل الإنذار بالفراق الأبدي المحتوم.. فكان اللقاء تمنّيًا، وظل الفراق هاجسًا يلاحقنا..

نسيت عمي وما يقوم به من بطولات.. ونسيت ابنته روز التي بدأت تزاحمها الأنوثة وعلاماتها، نسيت كل ما كان حولي وما يجري من أحداث فلا أذكر من تلك الأيام سواك.. وما عادت هزات الأرض تعنيني إلا هزاتنا المشتركة وزلازلنا المتتالية.. كل لقاء، كل صباح، كل مساء.. ما أسعدني بك أيتها الكلية وأنت تحتوينا معًا.. قلت لك:

ـ لم يبق لي أحد غيرك!

قلت لي وأنت تراوغني، تحاول إدخال القضية في كلامك.. تلك

القضية التي كرهتها لكثرة تدخلها في حياتي، وكثرة ظهورها أمامي بأشكال مختلفة ومعانٍ متباينة..

ـ بل لم يبقَ لهذه الأرض غيري وغيرك..

سعدت أنا بالجملة التي جمعت بيني وبينك واكتفيت بسعادتي تلك، فواصلت قولك:

– سنبني هذه الأرض يا سارة سنعمر ما خربه السلاح.. وسنصلح ما فشل الكبار في إصلاحه..

دينق... سارة..

نطقت اسمك كما أناديك به.. لم تكن تتعامل أبدًا باسم إبراهيم... كنت تفضل دينق ولا ترى ضرورة لتغييره.. تمسكت به وبثقافة قبيلتك رغم زياراتك المعدودة لها... حلقتُ أنا خلف الأحلام التي بدأت ترسمها لمستقبلنا..

سننجب أطفالًا يفلحون هذه الأرض ويخرجون من تحتها ذهبها الأسود، فنمتلك بذلك الذهبين... الأسود والأبيض...

يحبوننا أنا وأنت.. يحملون الود لأعمامهم ويحفظونه لأخوالهم.. لن يذوقوا طعم الحرب، سيستمعون فقط لحكاويها وذكرياتها..

يعتبرون بعبرتها، ويحترموننا لأننا تجاوزناها..

صدقيني يا سارة.. سيمتلكون ثقافة أخرى.. ثقافة هي عصارة ثقافتي وتراثي أنا بلونها الأسود وثقافتك يا سارة.. سنجعلهم ينتمون إلى إفريقيا والعرب.

سنسمي ابنتنا ميري وسيكون ولدنا محمد..

وجدت أنا في كلامك دافعًا للتمسك بثقافتي العربية حتى لا تضعف ثقافة أبنائنا وتحولت الكلية إلى بحر أنهل منه علوم اللغة العربية ـ القسم الذي أدرس به ـ أمنية أبي ورغبتك أنت!

وعبثت بنا الأيام وخدعتنا بمتعة اللقاءات.. فأنستنا ما ينتظرنا من فراق أبدي محتوم!

أكملت السنة الأولي من الكلية ولا يزال عمي وابنته في خارطة النسيان رغم البيت الواحد. فما زلت أنت محور الأحلام واليقظة..

ثم عاد التوتر يكتنف الأيام، ورجع الخوف يتملك الأعصاب، وأصبح الترقب والقلق يحكم قبضته على حياتنا...

لماذا تدمن السفر يا حبيبي ؟... لماذا لا تبقى معي؟.. لماذا كلما ألقاك، تتركني وتضيع مني؟..

هل كان موعدنا اللقاء
لنفترق!!!
هل كلما يدنو زمان لقائنا
دقت نواقيس الزمان
لنفترق!!
ستسافر مرة أخرى... وسأبكي أنا
ستسافر... وستبكي أنت أيضًا..
لم يخلف أبوك وعده لكنك من أخلفت وعدك.. ولم تعد!

التحقت أنت بجيش المعارضة.. والتحقتُ أنا بجيش الأحلام المزعجة والخواطر المتطرفة.. لم أكن أتخيل أبدًا أن تحمل بين يديك سلاحًا.. يداك اللتان احتويتني بهما يومًا.. ولم أكن أرى في جسدك مكانًا لزيّهم المرعب!

سافرت أنت.. فتوقفت عجلات حياتي وبعدها بأسابيع قليلة توقفت عجلات الكلية وكل الجامعة بل كل الجامعات.

أغلقت أبواب جميع دور العلم في بلادي وزجوا بطلابها إلى ساحات القتال حيث رفعت الثورة شعارها:

ضع القلم.. الدرس جهاد.

فرفعت أنا شعار:

ضع القلم.. الدرس حب!
ضع القلم.. الدرس ذكرى وألم.

وسيق الذين كانوا بالأمس طلابًا إلى قتال زعموا أنه جهاد، وأي جهاد ذلك الذي يقيم بيني وبينك سدودًا أخرى وحواجز أخريات؟! وعلا صوت الأقلام المتعفنة وبُحّ صوت سماسرة الحرب والدين منادين كل مريودة أن تتبرع بديك كأبي يذبحونه فداءً لولائهم ويقدمونه دليلًا على مناصرتهم للثورة.

كانت أقلام عمي تتقيأ دون أن أرى ما تخرج من بغاث الكلمات، وكاد أن يلحقني بكتائب أخوات نسبية ـ كما يزعمون ـ وما منعه من ذلك إلا أنه ما كان ليفرط في دليل ولائه وقربانه الذي تقرب به إليهم ـ أخوه الشهيد ـ أبي ـ.

طلبت منه أن أسافر إلى المريودة لأقضي عطلتي الإجبارية هناك، لكنه رفض وأبقاني إلى جواره ونجمه الساطع..

ازدهرت ثلاثية التخلف ذلك العام. فقد كان الفقر ورثة ورثناها فزادتها الحرب بؤسًا، وكان المرض في نفوسنا قبل أن يمس أجسامنا وجلودنا ويتمكن منها ويستقر فيها،

أما الجهل، فها هي الدولة ترفع شعاره وتنادي..

ضع القلم..!!

عام يمضي، ويليه آخر والثالوث يمرح دون راعٍ أو رقيب، ولا يأكل الذئب إلا القاصية، فكنت أنا في ذلك الزمان الذي انصهر فيه الناس وأصبحوا يحملون مزاجًا واحدًا ـ هو مزاج سيدهم ـ.

ما زلت أنتظر منك رسالة أو اتصالًا هاتفيًّا ولكنها الأيام ودورتها معي، تعيد ماضيها الأسود بذات التفاصيل.. لماذا تفعل مثل ما فعل أبي بالأمس القريب؟! لماذا تسافر وتتركني هكذا أترقب أخبارك دون حتى سراب يروي ظمأ هذا الترقب..

هل لأن عنواني هو عنوان عمي؟!.. أو لأن أرقامي وهواتفي هي أرقامه وهواتفه؟! لست أدري..!!

لا شيء يشغلني غير ذكراك، والأمل في لقائك، فعادت السلحفاء العجوز تقود مركبة أيامي ويستعصي عليها المسير.. بحثت عن الكتب فلم أجد ما يمكن أن أقرأه!، وسألت عن الصحف فلم أجد سوى عمي وسماره..

لماذا يحمل هذا الوطن صبغة واحدة؟! لماذا لا يلبس إلا لونًا واحدًا؟.. لماذا لا ينطق إلا بلسان سيده وقيصره؟!

وجدتُ نفسي مرةً أحمل في يدي عنوانًا قررت الذهاب إليه..

جرجرت خطواتي بين الأزقة والمنعطفات، بين المداخل والمخارج، أسأل مرة وأستبين الطريق مرة أخرى ثم أسأل فلا يجيب عليّ أحد، وإنما ينظرون إليّ بشكٍ وتلصص..

وصلتُ المكان أخيرًا.. هنا ربما أجد الأمل في أن يجمع القدر بيننا يومًا.. هنا سيتحدثون عني وعنك.. وربما تحدثوا عن مريودتنا أيضًا..

هنا سنتعانق من جديد، ستتداخل أنفاسنا مرات ومرات.. يكفيني ما عشت من أحلام! فقد صرت بلا حاضر ولا مستقبل.. أصبح الماضي والذكرى هما كل حياتي!!

ما كان عليك أن تسافر وتتركني.... !!

دخلت المكان!.. كانوا قلائل لا كما تخيّلت أن أجدهم.. يبدو أن مجالس النقاش والفكر لا تزال محظورة هنا..

جلست أتسمع وأتأمل ما يقولون.. كانت المنصة تحوي ثلاثة.. وربما كان بينهم رابع لا يراه أحد غيري! كنت حاضرًا أمامي، بين أوراقهم وسطور كلماتهم، لا تترك كلمة إلا وتعقب عليها.. كنت أفهم ما يقولون من خلال ما كنت تشرحه لي بتعابير وجهك وقدرتك الفائقة على الكلام دون كلام...

لماذا لا تترك المنصة وتعانقني؟؟!!

بل لماذا لا تترك هذا المكان ونذهب حيث نشاء؟؟ فأنا أريدك أنت.. لا أريد الحديث عنك فقد سئمت الكلام... سئمت الذكرى... صار الخوف يحرمني حتى الأمل في لقائك.

سألتك صارخة، غير آبهة بذلك الجمع حولي:

ـ هل سنلتقي ثانية...؟؟!!

ابتسمت وصرت تحدّق بي...

ما عدت أفهم الإشارات ولا التلميح، بل أخشى أنني أصبحت لا أفهم حتى الكلمات والحروف، ما دامت تلك الكلمات تخص لقاءنا.

ثم أجبت في هدوء وأنت تحوّل نظرك عنّي وتطوف بالحاضرين ويكتسي صوتك وقارًا وتأمل... قلت:

ـ سنلتقي...!!!

صرخت في وجهك غاضبة، متعجلة ذلك اللقاء:

ـ متى.....؟؟

أجبتني ولا يزال الوقار والتأمل في صوتك، ولا يزال الهدوء يغطي

عينيك قلت:

ـ سنلتقي.....

يومًا ما سنلتقي..... لابد أننا يومًا ما سوف نلتقي...

وبدأ طيفك يتلاشى وأنا أناديك وأنت لا تجيب.

قلت بصوت منعت العبرة خروجه:

ـ أما آن لك أن تعود....!!

غادرت المنصة، فأصبح مقعدك شاغرًا تملؤه كلماتك، ووعودك باللقاء.!.

ثم جعل ثلاثي المنصة يتحدث والجميع حولي يناقش... كانت القاعة تسع نحو العشرين شخصًا، المشغول منها لا يتجاوز نصفها بكثير، فكان الحوار والحديث بين المنصة والحضور تفاكرًا أكثر منه ندوة أو محاضرة تلقى على سامعين ينشغلون بأمور أخري عنها...

قال ذلك الذي يتوسط المنصة، وأظن أنني أعرفه، رأيته في الجامعة.. إنه الدكتور بابكر... نعم د. بابكر المهدي، قال:

«يجب ألا ننظر إلى العروبة على أنها فخر وننظر إلى الزنجية أو

الإفريقية على أنها غير ذلك...

فإذا كانت العروبة... لسان... فنحن عرب! وإذا كانت العروبة دم.... فإن دماءنا تغلي بحمى خط الاستواء... وتتدثر بجلودنا السمراء..!

وعلينا ألا نشعر أن ذلك يطمس هويتنا فنراه عامل ضعف... لأنه حقيقة عامل قوة وتميّز... فنحن العرب الأفارقة!... ونحن الزنوج العرب!»

ثم قال ذلك الذي يجلس على يمينه دون أن يؤثر على سلاسة الحديث وحلاوته:

«ونحن فقط من جمعنا بين الغابة والصحراء!... نحن فقط.....»

وعاد الدكتور بابكر يقول:

«ليذهب أحدكم مرة ويقف عند ملتقى النيلين ـ النيل الأزرق والنيل الأبيض ـ وليرى كيف أنهما يتعانقان أولًا ثم ليلاحظ كيف أنهما يسيران مع بعضهما البعض قليلًا دون أن يختلطا اختلاطًا يذكر ـ كأنما في هذه اللحظات يستجمع كل منهما ثقافته وتراثه ـ ثم يختلطان فلا تكاد تفصل بينهما أبدًا...»

دعونا نفعل مثلما فعلًا، لا يطمس أحدنا هوية الآخر وإنما نجعل منهما هوية

خاصة ولنطلق عليها (سودان)!»

ذهبتُ بذاكرتي إلى الملتقى حتى أرى ما رأى... كانت هذه أول مرة أرى فيها ذلك المقرن رغم زياراتي الكثيرة له دون أن ألحظ قبل تلك الكلمات، ذلك العناق، وذلك الاختلاط المتدرج ثم الانصهار الكامل...

قلت لك:

ـ نحن تعانقنا... فمتى نختلط؟

ثم قلت لك:

ـ نحن فقط من جمعنا بين الغابة والصحراء...

وقبل أن أكمل حواري معك وأعود من ملتقى النيلين، قاطعني أحد الداخلين للتو يهمس في أذن د. بابكر.

لقد رأيته قبل ذلك... أين رأيته؟!...

نعم، لقد رأيته قبل قليل وأنا أبحث عن هذا العنوان، سألته...

فرمقني بنظرة رفضتها، ضللني بعدها، لكني وصلت بعد ذلك...

جعل يوسوس في صدر د. بابكر ويهمس في أذنه فتحوّل نظره إليّ وهزّ رأسه إيجابًا وتسليمًا بقبول كلام ذلك الوسواس الخناس الذي بعدها رفع رأسه من أذن د. بابكر وقبل أن يغادر المكان نظر إليّ برفض ومكر، فنظرت أنا إليه أستعطفه ألا يجرحني ويحرمني هذه السلوى...

لملم د. بابكر بعض الوريقات التي أمامه وهمس في أذن من كانا على يمينه ويساره، ثم قال وهو يغادر المنصة:

«سنواصل بعد استراحة قصيرة...»!

فهمتُ أنا أنهم لا يرغبون في وجودي بينهم... هم لا يعلمون أنهم يعيشون الأمر تسلية أو ربما مغامرة وترفًا فكريًّا، وأنا أعيشه واقعًا... إنهم يعرفونني بعمي ولا يعرفونني بأبي، كانوا يخافون من عمي وظنوا أنني ابنته... ما أقساهم!!

رضختُ إلى رغبته تلك، وحملتُ نفسي وبعض الأمل الذي أخذته منهم، وغادرتُ المكان أردد في سري:

متى ستأتي أيتها الغابة لتروي ظمأ هذه الصحراء...؟!

متى...؟! متى...؟!

أصبحُ فأسألُ: متى.. ؟ وأمسى فأعيد السؤال: متى...؟! وما بينهما أردد ذات السؤال، فتكومت الأسئلة، وعاد اليأس كعادته يقف ببابي ويقرع الأجراس

لا تقرع الأجراس
لا القلب يقدر أن يقول:
كفاك «صه»
لا الصمت يقدر أن يقول:
كفاك «مه»
لا الشعر، لا الكلمات
تقدر أن تقول
لا تقرع الأجراس
بابي مشرعٌ
متوهجٌ
مرحى... تفضل بالدخول!!

وتسرب اليأس شيئًا فشيئًا يتخلل أعضائي... وها هو ذا صوتي يعلو لا...!!، لا.....!!

ملأوا الشوارع ملصقات، دربوا الألسنة على بعض الكلمات ـ الصحف ـ المجلات ـ التلفاز ـ المذياع ـ السوق.

العاصمة الثقافية العربية الخرطوم 2005م

أخفضوا أصواتكم فلا تسمعوني ولا تسمعوه... لا أكاد أصدق أننا في العام 2005م... لا أجد شيئًا في ذاكرتي من هذه الفترة الطويلة 1997م ـ 2005م هل توقفت ذاكرتي بعد رحيلك؟! كيف مرت كل تلك الأيام والأعوام دون أن تترك وتنحت في ذاكرتي غير عذابي ووحدتي وبعدك عني...

أعلنوا انطلاقة عاصمتهم، فقررت أنا أن أكون من الصم فلا أسمع، ومن البكم فلا أتكلم... لكني عدتُ أسمع وأتكلم بعد أيام فقط.

ثم كان التوقيع على اتفاق سلام بيني وبينك...

كانت نهاية حربنا لتعود إليّ، وتنهي عذاب الانتظار! وتغيّر طعم الأيام لتصير بين الترقّب والاحتمال...

ها قد حان موعدك أيتها الغابة لتروي ظمأ هذه الصحراء!!

وفدٌ من الموقّعين على اتفاق السلام سوف يأتي في الغد..

حان موعد لقائنا!...

كنتُ هناك في الساحة الخضراء... تجمع الآلاف بل الملايين ـ كل

منهم يرقب حبيبًا ـ وكنتُ في الصف الأول بين المترقبين...

ظهر الوفد... جعلوا يهتفون ويهتفون... والساحة كلها تهتف معهم...

هل سيمتهنون الهتاف مثلنا..؟! ذلك الهتاف الذي أصبح عادتنا وطريقتنا في التعبير عن كل شيء، عن الرفض، عن القبول، عن الفوضى، عن النظام، عن الرغبة، عن الحرمان، بل حتى عن لا شيء، لا شيء!!!.

لا أدري! وليس هذا ما يعنيني...

أين أنت؟! أين أبوك؟ لا أرى منكما أحدًا! وأمسى القلب يتمنى فيسمع صوتك، وصارت العين تترقب فتراك أمامها أيضًا...

ها هو ذا أبوك!... صرخت أناديه بلساني، بفمي، بيديّ، بجسدي، بكل شيء أعرف التعبير به أو حتى لا أعرف...

يا..... .....

كأنه كان مثلي يتمنّى ويترقّب، قفز من المنصة إلى الأرض...

وتعانقنا...

بكيتُ أنا بين أحضانه أبي... وتحسست أنفاسك، وبكي هو أبي... وبكاك أنت أيضًا !!!....

تجمعت الأسئلة وامتنعت الإجابات..

لن نلتقي أبدًا... لن نلتقي...

أين وعدك لي باللقاء؟... ألم تقل إننا سنلتقي؟... ألم تردد ذلك تكرارًا؟... ما هذا الذي يقوله أبوك... أنا لا أفهم ما يجري، لا أستطيع أن أدرك حقيقة ما يقول

قلت له:

متى.. ؟ كيف...؟ لماذا...؟

ثم صرختُ أتحايل على الحقيقة:

وأين هو قبرك... ؟!

سأحتضن التراب الذي حواك، وأقبّل الأرض التي ضمتك شوقًا وترقبًا..

افترقنا.....
ضاع المستقبل والحاضر ولم يبقَ غير الماضي...

لو أننا لم نلتقِ
لو أنّ يوم لقائنا مازال في رحم المضارع
مختفيًا
لنعيشه فرحًا يصوغُ قصيدةً
رفض الزمان مجيئها كي نحتفي
لكن المضارع قد مضى
والأمس أُقسم لن يجود بما مضى
إلا خيالي، سيظل يعشق ما مضى
ويعيش من أجل ال.. مضي
لو أننا مازلنا بباب الشوق
نرْقبُ يومنا
لنعيشه صمتًا...
فبعض البوح يقتل لو مضى!!

سأعيش الماضي وأجعل منه الحاضر والمستقبل، سأستعيد الذكريات وأقتات عليها... لكن الماضي كله هناك بين القضارف والمريودة...

سأعود إذن...!

سأعود يا عمي...!

لن تمنعني هذه المرة... ولن أتركك حتى تحاول ذلك...

سمح لي عمي بالسفر ببساطة أكثر مما توقعت بل إنه سمح حتي لروز أن تذهب معي إلى المريودة، وفي وجهه ذبول وانكسار غير تلك العزة الزائدة التي كان يلبسها قناعًا دائمًا، وفي عينيه شرود ظاهر، ووجود شبه دائم بالبيت. كنت أعرف أنه ترك الوزارة منذ حين لكن ذلك لا يمكن أن يكون تفسيرًا مناسبًا، فهو دائم التنقل بين الوزارات والمناصب العليا، وبين كل وزارة وأخري هناك بعض شهور الراحة والتخطيط.

عدتُ يا مريودة أستجمع ذكرياتنا وأصطحبها.. وتصطحبني روز...

لماذا جئت معي يا روز؟! هل جئت لتموتي حيث ولدتِ؟! «ماضٍ يشين سيرتك الذاتية» كما قالت ذلك أمك يومًا... وأما أنا فأقول:

ها هو ذا حاضر يشين سيرتك وسيرة أبيك..

ليتك لم تأتِ معي!... ليتك حفظت عرض أبيك ـ عمي ـ فهو عمي رغم رفضي له... القدر من جعله عمي... ذات القدر الذي جعل خطوطنا تتقاطع... ذات القدر الذي هيّأ لنا لقاءنا الأول، ثم لقاءاتنا الأخرى، ثم هو ذات القدر الذي فرّق بيننا...

استقبلتنا المريودة ببشاشة خدعت روز، فلم تكن تدري أن المريودة تضع الحرير وتفرش لها الورود على بئر النهاية والظلمة...

إنه ذات القدر، لكنه هذه المرة يهيّئ لنا لقاء بطعم مختلف

ابنة خالي!!!.

تلك الأنثى المريودية الماضي والحاضر والمستقبل أيضًا.. التقينا هذه المرة وهي تحمل بين أحضانها طفلًا... وتمسك بيدها طفلة أخرى وتنادي بصوتها طفلًا وصبيتين كانوا يلعبون في الشارع.

كان لقاء بطعم الأطفال...

ذهلتُ أنا.. فلابد أنها قد استأجرت أرحامًا أخرى.. هل كلهم أبناء بطنها وفي هذه المدة القصيرة!!!. ثم متي تزوجت لتنجب كل هؤلاء.

انشغلت هي بالأطفال عني، وإن كانت لا تفتأ تستغفل الزمن والأطفال لتقضي معنا بعض الوقت... أنا وروز.. تلك التي تقضي وقتها عبر ذاكرة أخرى لم أكن أدري ما قد وضع فيها بالضبط، غير أن المريودة بدأت تتسلل إلى تلك الذاكرة، فأكثرت الأسئلة وازداد اهتمامها.

كانت المريودة بالنسبة لها عبارة عن عوالم غريبة بقدر ما تمتلك من سحر الروعة والجمال والبعد عن الواقع الذي تعيشه هي أو ربما ذلك الواقع والحياة التي تدعي أنها تعيشها.

سألتني يومًا:

ـ ما عندكم صورة لحبوبة زهور؟؟!!

ضحكت وأنا أبكي حبوبة زهور وشكرت لها أنها لم تقل حبوبة روز! قلت لها:

ـ هل ترين قلبي؟!.. إن لها صورة منقوشة على جدرانه...

ثم ذكرت لها أنها ـ حبوبه زهور ـ.. كانت تحلم وتتمنى أن تذهب إلى الحج وزيارة المصطفى صلي الله عليه وسلم ولو فعلت ذلك، فلربما حصلنا لها على صورة أو تذكار...

عذرًا يا روز، فليست هناك أسباب أخرى عندنا لالتقاط الصور...!

دخلت علينا ابنة خالي تصطحب ابنتها الكبرى ـ سارة ـ شكرت لها الاسم وإن كنت في داخلي أخشى أن يأخذ مستقبلها بعضًا من حياتي...

أتمنى أن تختلف أقدارنا يا سارة الصغيرة!!

ابنة خالي وأنا يجمع بيننا الحنين، أنا وروز يجمع بيننا القدر، ابنة خالي وروز... أجمع بينهما أنا!

كان مسرحًا غريبًا.. وكانت الأحداث كذلك غريبة..

روز تحتفل بعيد ميلادها العشرين...

وأنا أحتفل بعيد موتي المائة بعد الألف!!

المريودة لا تعرف أعياد الميلاد يا روز.. وهذا البيت الذي يجمعنا لا يعرف طعم الاحتفالات... ولا صالات مغلقة هنا أو حدائق عامة..

كان ميلادًا بطعم الموت!

مقبرة المريودة تبرعت بالمكان، وقبر حبوبة زهور كان المسرح.. فلم نطفئ شموعًا، وكيف نفعل وشمعتنا كانت الشمس ذاتها.. لكننا أضأنا شمعة في قلب روز..

أدهشتني روز عندما قالت بأنها ستزور حبوبة زهور في عيد ميلادها.. إنها قوة المريودة وقدرتها على استدراج خطوات ضحيتها...

الشمس كانت شمعتنا في ذلك الاحتفال الخاص، فلم نكن نجرؤ أن نزور قبر حبوبة زهور ليلًا.. جثوت أنا أسلم على حبوبة، وأقتلع ذكرياتنا من حبات التراب التي وجدت نفسي أحكم القبض عليها.. تبعتني روز وهي تجلس بطريقة أكثر أناقة.. تحاول أن تتخيل بعضًا من ملامح حبوبة زهور، وتعقد مقارنة سرية بملامحها، ثم أخرجت من بين يديها شيئًا ما.. لا أدري من أين أتت به...

وردة..!!

وضعتها برفق وشيء من حنين... أول مرة أحسه في أفعالها... لم أشأ أن أقطع ذلك الحبل السري الذي بدأ يتكون بينها وبين حبوبة زهور... لذلك قررت أن أتركها وأروي ظمأ ذاكرتي بزيارة قبر آخر ينتظرني بالبكاء ـ قبر أمي ـ وكنت في طريقي أقول في سري:

ليت حبوبة زهور تقدر قيمة ما أهديته لها يا روز...!!

كان عناقًا بحرقة الفراق الدامي، ورعشة الألم الباكي، بكيتها بين أحضانها، وبكيت بين أحضانها أبي.. حبوبة زهور.. حياتي.. ثم بكيتك يا حبيبي!

كان لقاء أكبر من قوتي وشجاعتي... أكبر من قدرتي على الصمود والثبات... كان لقاء للحرمان..!

أين أنت يا أبي؟! أين هو قبرك ؟! لا أدري..

أين أنت يا دينق؟! أين هو قبرك؟!

لا أدري... لا أدري..

ذاكرتي فقط هي التي جمعت بين قبوركم جميعًا... ذاكرتي فقط!!!.

أين هو الميلاد وسط كل هؤلاء الموتى يا روز؟!

عفوًا، فذاكرتي ممتلئة... يكفيني ما وضعت فيها من أحزان.. اعفيني من آلامك يا روز!.. ابحثي لك عن ذاكرة أخرى أكثر تفاؤلًا وأقل ازدحامًا بالموتى والأنات..!

عذرًا أيتها الأنثى التي خدعتها المريودة وجرجرت خطواتها دون رحمة، فرجال المريودة وشبابها ليسوا مثل من كنت تعرفينهم يا روز، فلا تتمايلي ولا تخضعي لهم بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض، أو حتى المعافى منهم... لكنك لم تسمعي كلامي وغلبت طبيعتك التطبّع الذي طلبته منك... فكانت الحادثة!

سارة الصغيرة... كانت الشاهد الأول على تلك الحادثة..

اغفري لي أيتها الصغيرة فقد أصبتك بلعنتي..

كنا نتسامر أنا وابنة خالي فقد خلد أطفالها الخمسة للنوم أو كما كانت تظن هي ذلك..

سارة الصغيرة... ما زالت مستيقظة... لماذا لم تخلدي للنوم يا سارة... ماذا كنت تسترجعين من أحداث حتى يتأخر نومك هكذا؟!

أحست سارة حركة غريبة وكذلك أصواتًا غريبة.. ادّعت النوم... لكن عيونها تفوقت عليها وتآمرت عليها، فجعلت تراقب وتتلصص.. ضوء الفانوس كان كافيًا لرؤية كل شيء... وأي ضوء

أكثر من ذلك ربما فضحها وكشف أمرها..

أبوها... روز.. !

إنها لعنة الاسم أيتها الصغيرة..!

كان العطر الزاهي يفصل دائمًا بيني وبين عمي وها أنت اليوم أصبحت الروائح النتنة المنتنة تفصل بينك وبين أبيك!!!

تسللت من القطية دون أن ينتبه لها من تمكنت منهم سلطة الشهوة والجنس.

دخلت علينا.. أنا وابنة خالي ـ أمها ـ مذهولة لا تعرف ماذا تقول، توقفت عند الباب تنظر إلينا نظرات غريبة، تتسارع أنفاسها.. تبكي... تجحظ عيونها... تنظر إلى الأرض ثم إلينا... تمسك فستانها بيدها، تجفف دموعها...

ظننا حلمًا مزعجًا.. لكنه كان واقعًا أكثر إزعاجًا..

هرولت أمها مذعورة تضمها إليها وتهدئ من روعها...

بدأت تتكلم... تتلعثم.. تبدأ الكلام... تسكت... تتقطع الكلمات عن لسانها ولا تخرج سوى.

ـ أبوي...!.. روز.. !

فشلت الصغيرة في الكلام، فبدأت تشير بيدها وهي تجمع بينهما...

أبوي...!.. روز.. !

جرينا والصغيرة تحاول اللحاق بنا، وعند رعشة ذلك اللقاء وصلنا...!

ابنة خالي ـ زوجته ـ تصرخ وتولول.. ما كنت أستطيع أن أوقفها عن الصراخ أو أمنعها الولولة...كان أبوها -ود المهل- يلهث كالكلب المسعور شرقًا من عسلها وكانت هي تتلوّي تحته وتتنهّد شبقًا ومتعة وتشم إبطيْه بلهفة كمدمنة لم تتحصل على جرعتها لأيام. متي يا روز تخلّيت عن تعاليك وعدم الرضا عن أهل المريودة وثيابهم البالية وجلودهم الخشنة وروائحهم المقرفة كما كنت تقولين....

وتجمع الناس وضجت المريودة.. بعضهم يهمس وآخر يتكلم وثالث يتلصص.

لم أكن أدري ماذا أفعل، أو كيف يجب عليّ أن أتصرف.. أأصرخ في وجه المجتمعين وأطردهم؟ أم أضم ابنة خالي إلى صدري وأخفف عليها أو أمنعها الصراخ والنواح؟!

أم أتقدم إلى روز وشريكها وأنهال عليهما ضربًا وسبابًا؟! لم أستطع أن أفعل أي شيء... بل وقفت مكاني... حائرة الخطى، مشلولة اللسان، جاحظة العينين...

وصل خالي..!!!!

دخل كالمخبول، يصرخ ويتوعد وكأنها المرة الأولى التي يعاشر فيها رجل من رجال المريودة امرأة أخرى لا تحل له...

اسكت يا خالي، لا تزد إشعال النار واستر ابنتك...

هل تراك نسيت «بت الدهب» وبيتها، أو أن في الأمر شيئًا آخر غير الجنس؟! لأول مرة أرى رجلًا يعاقب بجريمة الجنس! تلك التي يتشارك فيها اثنان والمريودة لا تعاقب إلا أحدهما...

ربما لأنه صهره... أو ربما لأن شريكته هي روز...!

لكني أنا أيضًا كنت شريكتها وإن لم يمسسني بشر... إنها المدينة و«القراية» اللتان ظلّ خالي يصر على الربط بينهما وبين تلك الحادثة... فكان يصرخ ويلوح بعصاه.

أهي دي المدينة..َ! برا الفضائح شن جابت؟!

أهي دي القراية..َ! برا الفضائح شن جابت؟!

الله يرحمك يا أختي... والله يرحم بتك بحياتها!

هنا قررت أن أتدخل، فجعلت أصرخ في وجه المجتمعين وإن كنت أقصد خالي بذلك الصراخ وذلك الغضب.. تفرقوا جميعًا، لكن خالي لم يبرح المكان، بل بدأ صراخه مرة أخرى في وجه ابنته، ينتهرها ويطلب منها مغادرة بيت زوجها في عنف ورجولة كم سئمتها وكرهتها وكأنها هي المخطئة وليس زوجها... وهي من كانت تحتاج حنانه وعطفه...!

هكذا هم رجال المريودة!!!

تفرق الناس، لكنها المريودة، وما أضيقها وما حولها من قرى في مثل هذه الأحداث، تنتشر الأقاويل بينهم كالنبت السرطاني الخبيث، يتناقلونها فتزداد وتكبر، يتبادلونها فيدهش كل واحدٍ منهم بما زاده يعود إليه مسلمًا به...

صوروا الزمان والمكان، بل والكيفية أيضًا، وكنت أعلم أنهم لم يكونوا حضورًا.. لم يتحدثوا عن الفاعل كثيرًا.. كانوا فقط يتحدثون عن روز ـ ابنة(.....) وكنت أنا أحدث نفسي عن ابنة خالي

قلت مع بعضهم في سري:

-إنه غبن المريودة وغضبها على عمي...!

لم يعد مسرح المريودة يصلح للذكرى بعد أن أفسدته روز...

كُفى عن البكاء! فليست الدموع تغسل ما فعلت يا روز... لا تعتذري فلست أنا من يجب أن يقبل الاعتذار أو يرفضه.

اسألي زوجة شريكك... شريكة ذاكرتي... اسأليها السماح، اسأليها العفو إن استطعت... ثم اسألي أهل المريودة جميعًا أن ينسوا ما فعلت...

لن تستطيعي...!!

ضاعت ابنة خالي، وضاع زوجها، وبينهما ضاع أطفالهم، فالمريودة لا تغفر الذنوب ولا تعرف العفو حتى عند المقدرة.

هو

و

سارة...

عدنا إلى الخرطوم...

وقضيت الأيام والليالي أستجمع ذكرياتي وأعيش الماضي، وأجمع بعض أشعارنا تلك التي كتبناها معًا، بعض القصائد كتبتها أنا بلسانك أخاطب بها نفسي وأواسيها، وبعضها كتبتها أنت بلساني وقلمي وقلبي و...

جمعتها في هذا الديوان الذي تراه، جمعتها من أجل الذكرى وتوثيق الماضي، جمعتها لنموت معًا بين غلافي هذا الديوان، ونذوب بين سطوره وكلماته وحروفه...

خدعني عمي وأراد أن يستنطقني ويقتلع مني اعترافًا بعاصمتهم العربية، أغراني بالنشر والطباعة، رفضتُ في البدء، لكني عدتُ ووافقتُ حتى ننتشر معًا في كل ركن من أركان هذا الوطن الغريب! وكم كنتُ مخطئة يا حبيبي!... كان يمكن أن أنشر ديواني ـ أقصد ديواننا ـ بطريقة أفضل من هذه، بطريقة لا تجرح أحدنا، لذلك فأنا قد عدتُ ولم أدخل دار عاصمتهم، عدتُ أعتذر وأطلب العفو

والسماح...

اغفر لي ذنبي وخطيئتي...!

هذا هو ديواننا بين يَدَيْنا، لم يمسه أحد.. خذه و افعل به ما تشاء...

خذه!!!...

مالك لا تأخذه مني؟!

ألا تصدقني...؟!

خذه وارحمني من هذا التجريح والألم..

هذه هي القصة كما قصصتها عليك الآن، هذه هي الرواية كما قلتها لك.

لماذا لا تجيب أيها الطيف الماثل أمامي..؟!

قل أيّ كلام يشعرني بالعفو... افعل أي فعل يشعرني بالسماح... فأنا أحبك.. جدًّا... ولا أعرف لماذا أحبك... لا أعرف... لذلك أصبحت أؤمن أننا إذا عرفنا لماذا نحب فلانًا، فنحن حقيقة لا نحبه وإنما نحب ذلك الشيء وتلك الإجابة!!!

أنا سعيدة كوني لا أعراف لماذا أنا أحبك!!

لأني أحبك!!

أرأيت...

فالحب ليس مغامرة... والشعر كذلك ليس مغامرة، نكتبه إذا شئنا ولا نكتبه إذا لم نشأ نحن ذلك.

نقطة ضعفي
هذا الحبر السائل يستنطق صمتي
ذاك الصمت الصارخ يرفض بوحي
نقطة ضعفي
ليس الصمت، وليس البوح
بل الاثنان
نقطة ضعفي إنسان!!.
وأنت نقطة ضعفي.. . وقوتي أيضًا...

يقولون إن الشعر هو التاريخ المنقوش على جدار الحقيقة، فلا تقدر يد مهما كانت المساس به أو تزييفه، وإنه فقط ـ الشعر ـ المؤرخ الصادق لحياتنا، فلماذا لا تقبله مني...

هل تريدني أن أكتب ما قلت وأرسله عبر بريد الأموات، وقطار الذاهبين بلا عودة؟!

سأفعل يا حبيبي... سأفعل..

سأبدأ القصة هناك في المريودة، نهاية ذلك الأسبوع، يوم أن أهداكم أبي إلينا... اقتسمناكم قسمة عادلة. أمهاتنا يتبادلن الثرثرة والأقاويل. أبوانا ينشغلان بحديثٍ لا أفهمه.

وخلوتَ أنت بي!!..

و.....

و.....

ـ عذرًا يا دينق!

سأرى من الطارق وأعود إليك، ألا تسمع صوت الطرق على الباب ـ باب غرفتي ـ... عذرًا يا حبيبي! تلاشى أنت الآن... تناهي إلى اللاوجود وارحل عن غرفتي حتى لا تراك روز...

ـ اذهب ثم عُدْ بعد أن يذهب الزائر لنخلو ببعضنا نواصل الكتابة...

هيا فالطرق يزداد....

-انتظري يا روز...

صوت عمي يعلو

ـ افتحي يا سارة...!!

-عمي!!!

ما الذي جاء به إلى غرفتي.... لا أذكر أنه فعلها من قبل

ما الأمر يا ترى؟؟!

ـ ما هذا يا دينق! أما تزال هنا.

ـ هيا تلاشى!!!

أما تزال هنا..

هيا تلاشى... هيا اختفي..

ـ تفضل يا عمي..

ـ ما هذا يا سارة..!!

ـ أخبرتني روز أنك لم تخرجي ولم تتناولي شيئًا منذ الصباح... لماذا؟

هل رفضوا أن ينشروا ديوانك؟ لقد كتبت لهم توصية بذلك...

ما بالك مجهدة هكذا... ماذا كنتِ تفعلين.

-أكتب يا عمي...

-قصيدة جديدة...

-لا بل رواية...

- رواية!!!

ثم ضحك وقال بحذر:

ـ أنا أكبرك ثلاثة أو أربعة أضعاف عمرك وما زالت تستعصي عليّ الكتابة وسرد الأحداث...

ـ الكتابة ليست بالعمر يا عمي وإنما بالتجارب والرغبة وشيء من الصدق...

-وعن أي شيء تكتبين...؟!

كدت أقول:

دينق...

لكني قلت:

ـ المريودة

جلس وكاد أن يفتح تلك الوريقات التي نثرتُ عليها بعض كلمات قصتنا، وقال بصوتٍ هادئ كعادته عندما يود خداع سامعه.

ـ المريودة!!

لا أظن أن الكتابة عنها ستكون ملهمة أو ذات إيحاء... إنها قرية نائية جدًّا ليس بها ما يمكن أن يدوّن على الكتب أو ما يصلح كرواية...

قلت في سري:

ـ بل ليس في غيرها ما يمكن أن يصلح كرواية أعمق تأثيرًا وأكثر تناقضًا يا عمي...

واصل بذات الصوت الهادئ، يدفن عينيه تحت جفنيه وحاجبيه، ربما خجلًا مما سيقوله:

ـ اكتبي عن الريف الإنجليزي، إنه أكثر إلهامًا وأعمق وحيًّا...

ـ ولماذا لا أكتب عن المريودة؟!

ـ وماذا ستكتبين عنها... ؟!!

كيف تريدني أن أجيب؟! لا يمكن للكلمات أن تجري على لساني بهذه البساطة...

سأكتب عنك، عن أبي.. أمي.. حبوبة زهور....

سأكتب قبلكم جميعًا عن دينق.. أبيه.. أمه.. عن لقاءاتنا المحظورة والحرام!!

لكني قلت في حيرة مصطنعة:

ـ لا أدري عن أي شيء سوف أكتب!!...

ـ القصص الممكنة هناك في المريودة قليلة.. قليلة جدًا.

ربما عن كرم هذا أو تديّن تلك وعفافها أما في الريف الإنجليزي فيمكنك أن تفتحي نافذة الخيال وشرفات الوحي اللانهائية وتكتبي كما تشائين...

قلتُ بصوتٍ أعلى هذه المرة وإن كان بعد لم يصل إلى مسامعه...

ـ بل أريد أن أكتب الواقع وأسخر من الخيال، لماذا كلكم تتهربون من أشيائكم وتنكرونها وتصفونها بالجمود وعدم الإلهام...

سأكتب عن المسكوت عنه، وأزيل الأقنعة واغضبوا إن شئتم أو فاتهموني

بالجنون أو قولوا فاجرة!

روز لا تلبس إلا ما يُلبس هناك ولا تقول إلا ما يُقال هناك وأنت يا عمي تريدني أنا أيضًا أن أكتب ما يُكتب هناك ـ لا يا عمي ـ فليست الكتابة مغامرة أو ضربًا من اللهو أو الترف الأدبي، لكنها أن نقول من نحن ويجدنا القارئ نتجول بين النقاط والحروف والكلمات، بل أن يجدنا بين السطور!

الكتابة يا عمي، لا كما يكتب سماركم، فتلك إنما هي رقص على طبول متعفنة...

الكتابة هي أن نصوغ تاريخنا بأقلامنا ـ قبل أن تكتبه أقلام الآخرين ـ الكتابة هي التحدي الأكبر... تحد بين الكتاب والقارئ... وتحد آخر بين الكتاب والكاتب نفسه... فإما أن يكون الكاتب هو النص... وإما أن يكون القارئ هو النص... وإما أن يكوّنان معًا نصًّا واحدًا، هو مزج بين الواقع والخيال السحري الذي لا يبرح الواقع أبدًا بل يصوره ويضعه بين غلافي كتاب...

وأنت يا عمي أكبر نص وأضخم رواية لكنها مبعثرة وأكثر تعقيدًا من أن تجمع هكذا في أوراق....

ما هذا يا سارة، كيف جرجرت خطوات عمك إلى غرفتك؟!
كيف أوقعت به في شباك نصك يا سارة؟!

دخلتُ النص إذن!!!

كيف فعلت ذلك وأنا من ادّعيت أنني سأكتبك أنت أو ربما فقط أشاركك البطولة....

كيف تحايل عليّ قلمك وأنا من صنعك من بنات أفكاري... كيف تهزمينني وأنا من يمليك ما تكتبين...

لكنك قد صدقتِ يا سارة... سأكتب تاريخي بقلمي قبل أن تتجنّى عليه أقلام الآخرين...

«الآن حصحص الحق...»

أنا أعترف أنني عمك يا سارة... لكن ما هكذا أردتك أن تكوني... ولا هكذا أردتك أن تفعلي بروز، صحيح أنني لم أرزق بالأبناء، لكنني صنعت روز في نصك حتى تكون لي دثارًا وغطاءً من

الناس، فكلهم يعلمون أنني لم أنجب أطفالًا...

عذرًا روز!. ابنتي التي لم أنجبها حقيقة، فأنجبتها بين السطور..

عذرًا سارة!. ابنتي التي عبثت بعرضي.

عذرًا أيتها الأكذوبة التي أردتُ أن أمارس معها التخفي والاختباء...

«أنا أدعوك لنمارس معًا التخفي والاختباء... دعني أختبئ خلف اسمك أيها الكاتب العظيم، فربما لن يعرف القارئ أن تلك الأنثي العربيدة هي أنا أو ربما أنا نفسي عندما أقرؤها أنكرها ولا أتعرف عليها.....».

جمل وسطور تقفز إلى لساني من تلك الرسائل المنشورة على صفحات تلك الصحيفة التي لا أذكر لها اسمًا، فأصبحت أنت اسمها وعنوانها، تلك الفصول التي لا أدري هل اكتملت أو لا بعد ذلك القرار وعدم مواصلة النشر...

أنا لا أصلح أن أكون بطلًا ثالثًا في رواية كان يمكن أن أكون بطلها ـ وحدي فقط ـ ما كل هذه الأوراق المبعثرة أمامي هنا وهناك؟! تبًّا لك يا سارة! لم أفلح في لعبتي معك، لم أستطع أن أقول ما أريد... أردتُ أن أكتب عنّي فكتبت عنك يا وليدة الأوهام!. كيف رضيتُ

بدور الشخصية الظلية في نص أنا بطله وأساس حبكته الروائية.... «الكتابة هي أن نقول من نحن، ويجدنا القارئ نتجول بين النقاط والحروف والكلمات...» نعم ها أنا ذا أخرج من ثوبك الأنثوي يا سارة... كاتب من بين ذلك العدد من الكتاب الذين اعتذروا لك يا مريودة بكلمات مختلفة، وتعابير مختلفة، تحمل كلها بين طيّاتها ذات الأسباب....

ـ ما أقسي أن يكتب الإنسان عن نفسه ويعطي البطولة لآخر....

ما هذا الذي كتبته عنك يا سارة...

مراوغة...مراوغة...

هل تسمّين ما كتبته عنك «صدقًا»؟!

اعذريني يا سارة....

كان يمكنني ببساطة أن أفتح دفتري وأختار عنوانًا لقصتي، كأن يكون مثلًا:

مذكرات وزير مخلوع أو بلغة أكثر تهذيبًا: مذكرات وزير سابق.... أو ربما مذكرات رجل يدمن السلطة... أو رجل.. . أو بطريقة أكثر تعميمًا: رجال حول السياسة والسلطة! أو حتي.. رحلة

وطن..

أظن أنه يكفي أن أسميها

أنا...!!

قد أتركها بدون عنوان، لا أدري!

وأقلب الصفحة لأكتب الإهداء... لا ليس إهداءً وإنما اعتذار

سأكتب:

اعتذار

إلى

شعب ووطنّ

بل وأمة!!.

وأكتب على الصفحة الأخرى:

يحزنني جدًّا أن أكتب قصتي، لكنه بالطبع يسعدني ويخفف عنّي كثيرًا من الألم....

ثم أقوم بالتوقيع تحت هذه الكلمات كمقدمة لنص قد يأتي بنفس

قوتها...

وببساطة أكثر من هذا التعقيد الذي أتعامل به مع قلمي يمكنني أن أبدأ قصتي وأكتب:

أنا.....

لا أستطيع يا سارة... أقصد أيتها الأكذوبة، وأيّها النص الملفق... وما كل هذه المغالطات وما كل هذا التلفيق.

الرسائل ـ المجلد ـ سارة ـ الكاتب ـ الصحفي ـ دينق ـ المريودة..

لماذا تركتها تشاركني قصتي؟!

الرسائل...

سأمزقها بين يديّ وأقذف بها من أمامي، وربما كانت هي صوت الإنسان داخلنا، صوت الضمير الذي يعلو ويصرخ دون أن يجد منا اهتمامًا.

الكاتب...

ربما كنت أنا أو ربما....

سارة...

أردتُ الاختفاء خلف اسمها وصوتها وقلمها الأنثوي.

دينق....

ربما كان فكرة أو ربما كان دثارًا آخر لشيء ما.

المجلد....

يحوي قصتي، تلك التي لم أرها يومًا ولم يتجرأ كاتب أن يكتب مثلها، رغم أن حياتنا لا تسير إلا بطعمها... هل كلهم يكتبون مثل ما يُكتب هناك، هناك خارج حدود عوراتهم؟! لماذا لا نكشف الجرح ليشفى؟!

....

أو كما سمتها سارة المريودة، فلم أمتلك بعد الجرأة لأكشف عورتي وجرحي...

لا أريد هذه الأوراق... وهذه الخرافات...

لا أريد أن أرى كل هذه الأكاذيب... لا أريدها!!

جعل لسانه وفكره يصرخ ويداه تنفذان الرغبة والإرادة، تقذف بالأوراق بعد تمزيقها حتى امتلأ مكتبه المنزلي بها، فأصبح المكتب

نفسه يضايقه...

ـ سأخرج... لا أطيق البقاء...

خرج من مكتبه فكانت أمامه زوجته، تلك التي تترفع عن مريودته وتتعالى على السخرية منها...

ـ ما الذي جاء بك أمامي؟!... لا أريد شيئًا، كرهتُ الأكل هنا... سآكل أكل مريودتي ولا أظنك تعرفينه...

الكسرة! ـ الويكة!

هكذا صرخ في وجهها وجعل يصرخ وهو يتسلل عبر الباب السري لمنزله ـ قصره ـ الفاخر، فلا يريد أن يراه أحد ولا يريد هو أن يري أحدًا، لا البواب.. لا السائقين.. الطباخين.. العاملين... لا يريد أن يرى أحدًا منهم جميعًا.. ووصل إلى الشارع العام يتلفت ويتساءل عن مكان يجد فيه أكل مريودته...

ـ ما كل هذا الصخب؟! وما كل هذا الضجيج؟!

ما كان يعلم أن الطرقات مزحومة هكذا، أو أنها ضيقة هكذا!..

ـ ضيقة هي الشوارع وضيق هو صدري..

وهو حائر الخطى، لا يستبين الاتجاهات، وقفت بجواره عربة طويلة ـ حافلة ـ نزل منها شاب«الكمساري» ينادي بصوته ويشير بيده في رشاقة وتناغم:

ـ عربي! ـ عربي! ـ عربي!!!

اقترب منه متعثر الخطوات، لا يدري ماذا يريد! أيركب أم لا؟؟.. وأخذ تردده ذلك عدد الدقائق التي أخذها الراكب الذي أوقف العربة للنزول منها...

قرر الركوب معهم... بدأت الحافلة التحرك، قفز إليها.... وأوقف السائق العربة بقوة كادت أن توقع به داخلها... نظر إليه ذلك الشاب غاضبًا وهو يقول:

ـ من قبيل ما واقفين يا حاج !!

لم يدرِ ماذا يقول... جلس متباطئًا على أحد المقاعد الوسطية الضيقة، لا يجرؤ على النظر إلى من هم على يمينه أو يساره، خلفه أو أمامه... كانوا كثيرين جدًا، يفوق عددهم الـ25 راكبًا، يتشاركون جميعهم مركبة واحدة.

سمع بقلبه قبل أن يسمع بأذنيه حوارًا من كنّ إلى يساره...

ـ دا مش..... .....؟!

ـ أي والله يا هو ذاتو...

ـ ومالو الحاصل عليهو شنو؟!

ـ يكون شالوهو من الوزارة يا أختي..

ـ يا هو حال الدنيا...

ـ وهو دحين كان ماسك ياتو وزارة؟

ـ هي يا يمة هي داب وزارة...

ـ كان وزير الـ.....، ووزير الـ..... ووزير الـ..... ومن وزارة لي أختها.

ـ يلا... دوام الحال من المحال يا أختي.

ـ « شكرًا لك أيها الشاب الذي أركبتني معهم وأنت تقطع عليّ وعليهن ذلك الحوار بفرقعة أصابعك وانحنائك ناحيتي..».

نظر إليه فلم يفهم ماذا يريد... جعل يزيد صوت فرقعته وكاد أن يطلب منه أن يوجه فرقعته تلك وانحناءته إلى جاراته حتى يسكتن..

مدت إليه إحداهن قطعة نقدية وهي تقول موجهة كلامها إليّه:

ـ والله ما ح تدفع يا سعادة الوزير.....

وصلت المركبة إلى السوق العربية، نزل منها وبدأ يتنقل بين منعطفات تلك السوق التي لا تكاد ترفع قدمك عن الأرض حتى يطأها آخر غيرك أو ربما تشاركتما ذات الموطئ في لحظة واحدة.

ـ أين مريودتي؟!... وأين أكلها؟...

قرأ ما يفوق الألف لافتة حتى قرأ أخيرًا تلك اللافتة التي ترشده إلى مريودته وأكلها...

دخل المطعم... تستبق أنفه أقدامه.. وتهرول عيونه متنقلة بين الآكلين وتتتبع خطاهم...

ـ من أين جاءوا بهذه الصحون الممتلئة؟!

وقف مع بعضهم خلف ذلك الشباك... جاء دوره في ذلك الصف القصير المتعرج...

سأله من يملأ الصحون:

-قراصة ولا كسرة؟!

أجابه:

-بلدي... كسرة.. تقلية

مدّ يده إليه ـ لم يفهم هو أيضًا لماذا كان يمدّها، عاد وجده مبهوتًا لا يجد

الإجابة عن يده الممدودة، أشار إليه بهدوء وقال:

-جيب ماركة من هناك...

نظر صاحبنا حيث أشار له فرأي صاحب المقعد العالي يأخذ المال أولًا ثم يعطي «الماركات»....

ـ أنا لا أحمل معي مالًا... ما هذا؟!... هل سأعود خائبًا... لا... لا..

سآكل بعيوني وأنفي!... لن أعود يا..... ..... أو كما سمتك سارة المريودة..

تجول داخل المطعم ينتزع اللقمة من أفواه المنتشين بأكلهم ويسترق النظر إلى بطون التاركين بقايا أكلهم على الصحون...

كان كمشرد تعثر حظه فلم يتمكن من جمع قطع النقود ليفعل مثلما يفعلون!... بل كان ككلب ضال ممنوعة عنه حتى البقايا والفتات. قاطعه ذلك الذي يملأ الصحون وهو ينادي:

ـ يا حاج....

نظر إليه فإذا به يشير ناحيته ويتحدث مع أحد العمال وهو يناوله صحنًا ممتلئًا..

عرف أنه سيتكرم به عليه... لم ينقض على ذلك الصحن الذي سيقدمونه له،

ـ لستُ مشردًا!!...

وإنما انقضت قدماه ناحية الباب، ووجد نفسه يدخل منزله عبر الباب السري أيضًا، فلا يريد أن يرى أحدًا...

مازال جائعًا جدًّا... لن يسد رمقه غير أكلك يا مريودة..

ـ سأحمل بعض المال وأعود إلى المطعم مرة أخرى...

ـ لا، لن أذهب الآن.... فقلمي أكثر جوعًا منيّ...

ـ هل أنا حقيقة أريد كتابة قصتي أو أن الفراغ الذي أعيشه يغريني بهذه الأفكار الغريبة ؟! هل قصتي تحمل كل هذا السواد أو أنه الفراغ أيضًا؟! لا أدري! أريد فقط أن أكتب قصتي، ولكني لا أستطيع... كيف أبدأها؟ كيف أكتبها؟!

هل سأفعل مثلما فعلت المريودة وأستجدى ألف كاتب آخر حتى يكتب عني...

أعرف أنني لست بكاتب أو راوٍ... لكنني سأكتب قصتي بنفسي...

سأكتبها الآن أو فلابد أنني يومًا سأكتبها....

سأتخلص أولًا من قصتك يا سارة، لقد فشلت في لعبتي معك... سأحرقها وأجعل دخانها بخورًا يتغلغل إلى أعماق صدري عله يجبرني على الكتابة أو يخنقني فأموت....

سأحرقها...

ما بال دخانك أسود هكذا يا سارة؟!

كيف سيكون دخان قصتي إذن!!

أكاد أختنق!.. لكني لن أطفئ هذه النيران التي تلتهم أكذوبتك يا سارة... اشتعلي أيتها النيران، وتغلغل أيها الدخان حتى يُجبر قلمي على الكتابة...

سأغلق الباب والنوافذ وكل المخارج حتى لا يتسرب دخان موتي فإما أن أكتب أو أموت يا سارة.

أطفئ النيران!....

سأكتب!!

لن أطفئها!... أكتب بضوئها!!

الدخان كثيف، يمنعني الرؤية ويحجب عني الأشياء..

الحقيقة لا تحتاج إلى ضوء أو عيون مبصرة..

سأكتب!..... أقسم أنني سأكتب!

اكتب إذن إن كنتُ صادقًا ولا تحاول،... فلن أطفئ النيران ولن أمنع عنك

الدخان..

أعطني أوراقًا أكتب عليها...

اكتب أولًا على الهواء وقل من أنت وتجرّأ على ذلك..

سأقول من أنا..... سأكتب على فضاءات الحقيقة وأقول من أنا

.....

من أنت؟!

أنا.....

ومن أين أنت؟!

من..... ..... أو كما سمتها سارة ـ المريودة ـ

انْس سارة.....

نسيتها.....

من أين أنت؟!

من.....

خذ الأوراق واكتب إذن!!!

الفهرس

- هو 7
- سارة...! 85
- هو و سارة... 229